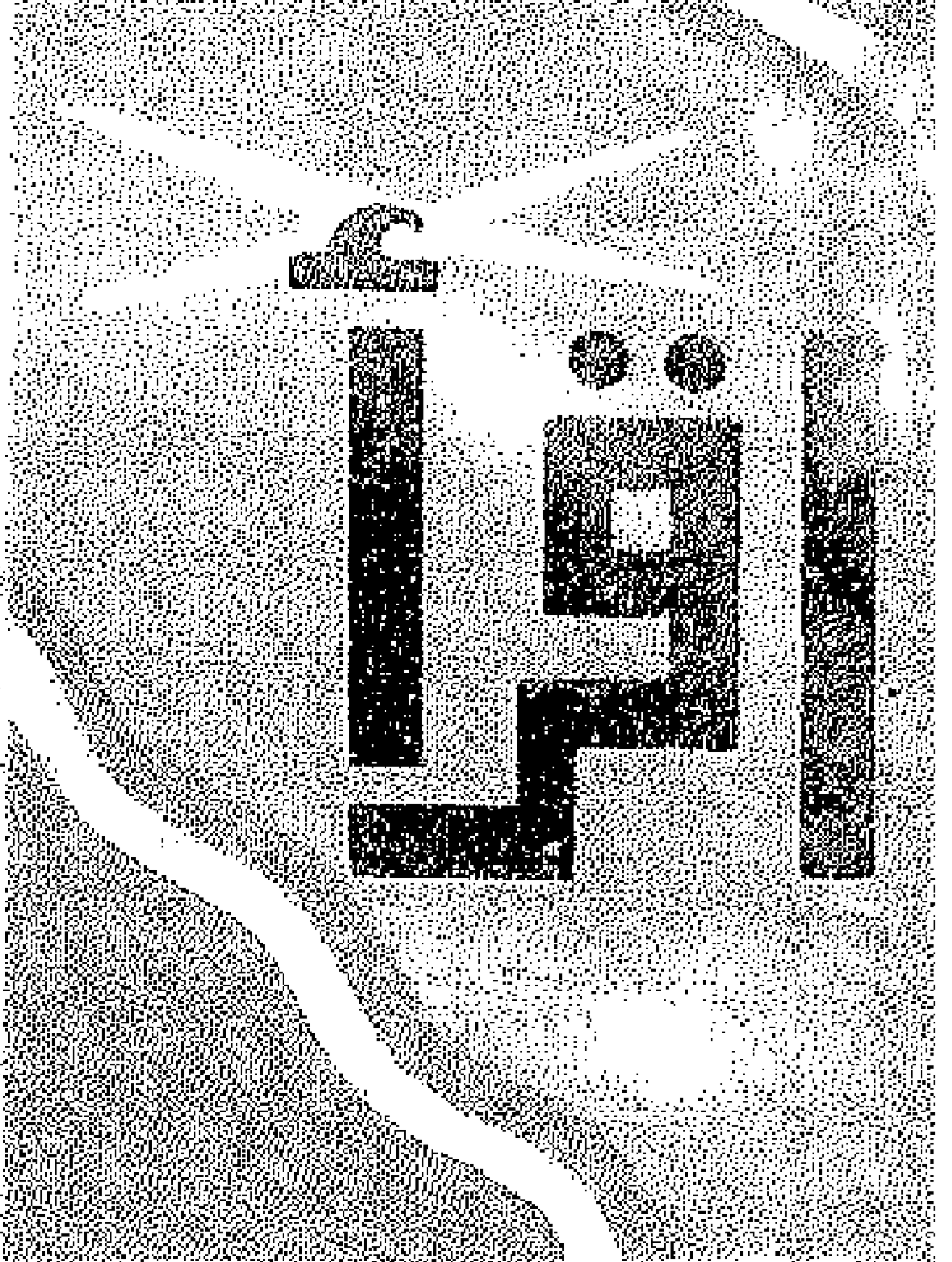


د. حسين مؤنس

أدم يعود إلى الجنة!



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا





دكتور حسين مؤنس

آدم يعود إلى الجنة

اقرأ ٣٦١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦١ – ديسمبر سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

بعد الظلام يكون النور ، ومن الليل يخرج النهار . .

بعد قليل يتلاشى السكون المخيم على الدار الصغيرة القائمة على شاطئ الترعة . سيسرى النشاط فيها وفيما حولها ، ويصحو الراقدون فى الفرُش داخلها ، ويبدأ فى حياتهم يوم جديد يشبه اليوم الذى مضى وفات ، ولا يختلف كثيراً عن الغد الراقد خلف أستار الغيوب . .

هذه الدار تقوم فى قرية صغيرة ، على شاطئ ترعة صغيرة أيضاً ، خلف بلدة عزبة البرج شمالى دمياط . هذه الناحية القاصية من شمالى الدلتا تعيش وكأنها قابعة وراء السحب . نادراً ما يدخل حياتها عنصر جديد . الذين يعيشون هناك هم حفداء مباشرون لسكان شمالى الدلتا قبل عصر الأسرات . . إلى هناك أتوا من جزائر البحر فى فجر التاريخ ، وهناك أقاموا إلى اليوم . زرقة عيونهم وشقرة شعورهم مصريتان أصيلتان ، كسهل الدلتا وهضبة الصعيد . .

هنا نادراً ما يحدث شيء يستحق الذكر ، أو لا يستحقه : الناس يولدون ، ويكبرون ، ويعيشون ، ثم يموتون . . . حياة فاترة بطيئة الحركة مثل ماء الترعة . يخرجون إلى الحياة كما تخرج ثمرات الجميز من شجرتها الضخمة . . بعضها يقع إلى الأرض ، ويأكله النمل ، أو تدوسه الأقدام ، أو يتخطفه الطير . . فى الغالب تبقى على الأغصان بقية يستمر بها وجود نوع الجميز فى قيد الحياة . . كما لا يفنى الجميز ،

كذلك لايفنى البشر . . الذين يبقون يكررون قصة آبائهم من ألوف السنين ، وتنتهى حياتهم بدون احتفال كبير . . إنهم يموتون ليولد غيرهم . . لا بد أن تبتلع الأرض إنساناً حتى يخرج إليها إنسان جديد . .

الدار الصغيرة التى نقف أمامها الآن تختلف كثيراً عن كل ما حولها. إنها دويرة لطيفة من طابق واحد تعلوه غرفتان ، واضح أنهما إضافة جديدة . . إنها مبنية بالطوب الأحمر ، هذا يميزها مما حولها من الدور . . عدا ذلك لا تتسم بغنى أو يسار ، ومع ذلك تستقر العين عليها دون غيرها. فيها أشياء يستريح لها القلب وتهش لها النفس . أشياء صغيرة ، ولكنها تترك فى النفس وقعاً لطيفاً . . كل الأشياء الجميلة فى الحياة صغيرة . . على كل من جانبي الباب شجرة ورد . عند أصل الجدار تنمو زهور برية لطيفة ، صفراء وحمراء وبيضاء ، تنظر إليك بعيون واسعة كعيون القطط . . لا بد أن السعادة أقامت — أو تقيم — هنا ، فالورود والزهور بصمات السعادة . .

باب الدار يقوم فى مواجهة الترعة ، وهو يرتفع عن الأرض ثلاث درجات . غصون من شجرة لبلاب تتسلق الجدار وتلتقى فوق المدخل فى عريش أخضر جميل . . بين باب الدار والترعة مساحة واسعة تغطى بعضها تكعيبة عنب . .

هنا تعيش امرأة جميلة . . كل ما يشع فى الدار وحولها من جمال وديع كأنه الهمس ، إنما هو نبض رقيق لقلب هذه السيدة الشابة الجميلة الراقدة الآن فى سكون آخر الليل . . إنها صغيرة رقيقة فى فراشها ،

ولكنك عندما تراها فى النهار وتسمع صوتها تشعر كأنها تملأ الدنيا أمامك . .

اسمها « طاهرة » . . كتبوها فى شهادة الميلاد « الست الطاهرة » . . هكذا أراد أبوها . . كان صياد سمك كمعظم أهل هذه الناحية . فى الخريف يصطادون فى بحيرة المنزلة ، وفى بقية العام يلتمسون رزقهم فى مصب النيل وفى المنطقة المسماة بشطوط دمياط . . هنا قرى كثيرة كل أهلها صيادون : عزبة اللحم والخياطة وعزبة البرج وغيرها . .

ناس يعيشون على الفتوح . . رزق يوم بيوم . . عندما يلقون بالشباك لا يدرون بماذا تخرج . . أحياناً تعود بحمل ضخم يملأ قاع المركب الصغير إلى نصفه . . أحيانا أخرى يخرج كوم متواضع من الجران والكابوريا . . نصف الكوم يباع ويشترى بثمنه خبز ، والباقى يشوى . . على السمك المشوى والأرز المطبوخ بالسيرج تعيش العائلة والعيال إلى اليوم التالى .

أهم ما يميزهم إيمانهم الصادق بالله ، ثم نظافتهم وجمال نسائهم .. هنا كل شىء نظيف ناصع البياض . هنا أيضاً كل النساء جميلات ، شقر تضفى عليهن الشمس سمرة فاتنة تزيدها زرقة العيون فتنة . . هنا ثلاثة أشياء تأسر القلب : شعور كستنائية فاتحة أو شقراء ، وبشرة خمرية صافية السمرة ، وعيون جميلة واسعة زرقاء أو خضراء أو عسلية . .

* * *

هذه الدار وما حولها من أرض — لا تزيد مساحتها على فدانين — هى بعض ما خلف للست الطاهرة أبوها الشيخ إبراهيم من ميراث . ترك لها — إلى جانب ذلك الإرث البسيط — ثروة أكبر من السمعة

والجاه . . كان فى أول أمره صياداً كسائر أهل الناحية . وكان — كغيره من الصيادين هناك — منتسباً للطريقة الدسوقية . كان شيخه ولياً من الدرجة الرابعة ، وواحداً من ألوف يقولون إنهم أخذوا الولاية فى المنام عن سيدى إبراهيم الدسوقى . هذا الولى من الدرجة الرابعة كان اسمه سليمان . . رجل جشع منهوم قليل الحياء .. قال لإبراهيم ذات مرة : اسمع يا إبراهيم.. أنت تصلح لأن تكون ولياً . . سأكشف لك السر ، ولكن لا بد أن تدفع لى الثمن . .

— وما هو السر ؟ . .

— حتى تعدنى بدفع الثمن . .

— قد لا أستطيع دفعه . .

فضحك الشيخ سليمان وبدا وجهه كوجه شيطان . قال : ياعبيط . . نحن الأولياء لا يعز علينا ثمن . . عندما أعطيك السر ستضرب الأرض هكذا — وضرب الأرض بعصا من البوص كانت فى يده — ثم تطلب ما تريد ، فيكون لك ما تريد . . خروف محمر أو بنت السلطان . .

— وما هو الثمن ؟ . .

— بسيط . . بسيط جداً . . تتزوج بنتى زكية . .

— ولكنى متزوج . .

— قلت لك إنك عبيط . . لك الحق فى أربع . . وبعد الولاية تستطيع أن تأخذ منهن ما تريد بدون حساب . .

ثم مال نحوه وقال فى همس : « قسماً بالله يا إبراهيم .. نسوان المحافظة

والبركله فى أصبعى هذه . . آخذ منهن من أشاء وأدع من أشاء . . بركة هذا الخاتم تذل لك كل جبار وكل جبارة . . ماذا تقول ؟»

فمر الشيخ إبراهيم بيده على لحيته الكثة السوداء ، ونظر إلى صاحبه بعينين شابتين وقال : «لا أريد هذا السر . . »

ــ عجيبة ! . . لا تريده ؟ !

ــ لأنى لا أريد أن أتزوج على زوجتى . . إنها عندى تساوى الدنيا كلها . . من كانت عنده زوجة صالحة وتزوج عليها فقد كفر بنعمة الله . . لا يجوز أن نكفر بنعمة الله ياشيخ سليمان . .

ــ بل أنت كفرت بنعمة الله ورفستها بقدمك يا منحوس . . الآن لا ولاية ولا سلطان ولا خيرات ولا نعم . . غلبان يا إبراهيم . . والله غلبان ومولود فى يوم نحس . .

ولم يرد عليه .. تركه يهذى ومضى عنه ،عاد إلى بيته .. عندما نظر فى وجه زوجته الوسيم شعر أنه أحسن صنعاً إذ ترك الشيخ والمشيخة والولى والولاية . . أى شىء فى الدنيا أحسن من زوجة صالحة ، وبخاصة إذا زينها الله بالجمال ؟ . .

* * *

انصرف إبراهيم بعد ذلك عن المشايخ وحلقات الذكر والكرامات ، وأقبل على العمل . . اكتشف أن الولاية الحقيقية هى الإخلاص فى طلب الرزق ومعرفة حقوق الله . . كان يخرج للصيد بقاربه الشراعى الصغير قبل الفجر . كان يرافقه صبى واحد ، كان تابعه أيام الدروشة وخدمة الشيخ سليمان . . اسمه صابر ، وكان أبرك عليه من عشرة صبيان . .

المعلمون الآخرون كان يصحبهم أربعة صبيان أو خمسة أو ستة ، ولكن صابراً كان أبرك من الأربعة والخمسة والستة . كانت الشبكة تخرج مثقلة بالبورى والطوبار والدنيس والمياس واللوت والقروص والوقار وسمك موسى ، فى حين كان الآخرون يعودون بالكابوريا والشبار وما يشبهه من أصناف السمك التافه الصغير . . كان كل رفاقه يتعجبون .. كان يبيع فى اليوم بثلاثة جنيهات وأربعة ، ويعطى الفقراء سمكاً كثيراً . . أول الأمر شعر زملاؤه نحوه بالحسد، ثم بالغيظ ، ثم بالعداوة . . تركهم يقولون ما يشاءون ، ولزم صمت الصالحين . . كان يعمل ويصلى ويتصدق ، ويعيش وحيداً مع زوجته خديجة فى كوخ كان فى الموضع نفسه الذى تقوم فيه الدار الآن . . صمته جعل عداوتهم له تتحول إلى رهبة منه . . قالوا إن جنية بحر تخدمه . .

قال لهم صابر إن الله يرزقه لإخلاصه فى عمله واجتهاده وصدقه وإيمانه .. قال واحد منهم إن الله منّ عليه بالولاية لزهده فى إغراء الشيخ سليمان الفاجر .. التفوا حوله واعتذروا له . . تحولت رهبتهم منه إلى حب .. أرادوا أن يتخذوه وليـاً . . قال لهم : «قال لكم صابر إن ولايتى هى الإخلاص والاجتهاد والصدق والإيمان . . »

بعد سنتين بنى لهم جامعاً جميلا على الضفة الأخرى من النيل سماه جامع السيدة خديجة . . هناك قامت مساكن الكثيرين منهم ، واشترى هنا الفدانين اللذين تقوم فيهما الدار . لم يكن له أولاد ، فلماذا يشترى أكثر ؟ . . ثم بنى الدار التى وصفناها ، وبنى الجامع الجميل الذى يقوم غير بعيد من البيت .

كان صابر يقول له : « يامعلم إبراهيم . . لا بد لك من ولد . . »
فكان رده دائماً : « الأولاد تأتى عندما يريد الله سبحانه وتعالى . .
لى أولاد كثيرون عند الله . . سيعطينى الصالح منهم فقط عندما يحين
الوقت . ما الفائدة فى عشرة أولاد كلهم عصاة ؟ ! اسمع يا صابر . . .
ربنا كان يستطيع أن يعطى سيدنا عمران خمسين ولداً ، ولكنه أعطاه بنتاً ،
أعطاه ستنا مريم أم سيدنا عيسى أخى سيدنا وولانا محمد . . سامع
ياصابر؟ ستنا مريم التى هى أفضل من ألف ولد ، هذا هوكرم ربك . . »

برغم أنفه أصبح الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى ولىّ . . كرامته
كانت شبكة الصيد التى تخرج مثقلة . . هو وحده كان يعرف سر
هذه الكرامة : الذكاء . . عرف أين يكثر السمك الكبير القيمة ،
وعرف أحسن طريقة لصيده . . كان أيضاً يبكر ساعتين قبل غيره . .
بينما يكونون هم ما يزالون يحتسون أكواب الشاى فى قهوة النيل ، يكون هو
وحده فى مواقع الصيد وقد ألقى شباكه . .

* * *

كانت نفسه تتوق إلى الولد ، ولكنه لم يطلب من الله سبحانه شيئاً . .
الطلب من الله عيب وسوء أدب . . فى ذات يوم وجد امرأته خديجة
حاملا . قال لمن حوله : « آن الأوان . الأرواح عند الله فى السماء ، وهو
يطلق منها ما يشاء وقتما يشاء . . »

لم يكن يشك فى أن المولود غلام . عندما لم يبق على الميلاد إلا شهر
أو نحوه ، خرج ليسير على قدميه إلى طنطا . كان قد نذر هذا المولود
للسيد البدوى . أراد أن يأتيه الخبر هناك فيسمى الغلام سيداً . . وصل

إلى هناك وجاور وصلى وتصدق . لم يكن معه إلا صابر . فى ذات يوم كان ينام فى صحن الجامع ، فرأى السيد البدوى يناوله رسالة مقفلة ويقول له: « اذهب بها إلى ستّى الطاهرة أم هاشم . . حاجتك عندها . . »

من طنطا سار إلى القاهرة ، على قدميه أيضاً . سار خلفه رفيقه الوحيد صابر . . كانا يشتدان فى السير . لا بد أن يكونا قرب مقام الست الطاهرة عندما تلد خديجة ، ليعطى المولود اسم الحسين . .

هناك صلى وجاور . كان يقيم عند صاحب له اسمه الحاج عبد المطلب ، يسكن فى شارع نور الظلام .

فى ذات ليلة كان يسبّح فى مقام الست بعد صلاة العشاء . جاء إليه عبد العزيز الهراس . كان صياداً مثله من عزبة البرج . لا شك أنه يحمل إليه خبراً ، ولكن وجهه الشاحب كان لا يدعو إلى تفاؤل :

ــ أين أنت يا معلم إبراهيم ؟ الست ولدت أمس . رزقك الله بنتاً . .

مرت على وجه إبراهيم سحابة من الحزن . ربت صابر على ظهره وقال : « زعلت يامعلم ؟ . . نسيت سيدنا عمران عندما أعطاه الله مريم ؟ نسميها مريم . . أليس كذلك ؟ »

ويبدو أنه لم يسمع . كان لا يزال واجماً ، ثم قال فى صوت أجش : « قلت مريم ؟ لا . . الست الطاهرة . . سموها الست الطاهرة . . . الاثنتان سواء . . ستنا مريم البتول وستنا الطاهرة . . »

وبارح الجامع إلى دار صاحبه فى شارع نور الظلام .

عندما اقترب من البيت رأى بجواره سرادقاً ينتشر منه صوت قارئ

يرتل القرآن . شعر برهبة وخوف . هذا المشهد نذير بموت أحد أهل الدار . .

بخطوات ثقيلة سار إلى السرادق عند باب بيت صاحبه . . لمحه أحد الجالسين خارج السرادق فهب إليه . . قال فى همس : « يوم أسود كالهباب يا عم إبراهيم . الحاج عبد المطلب ابنه مات . . »

فصرخ إبراهيم : « حمزة ؟ . . »

— حمزة الطالب فى المعلمين العليا . قصف شبابه الإنجليز ضحى اليوم . . خرج فى مظاهرة يهتف لمصر والاستقلال . فى شارع الدواوين . حاصرهم الإنجليز ورموهم بالمترليوز . . ثمانية عشر شاباً كالورد ماتوا اليوم شهداء على يد الإنجليز أعداء الله . حمزة جاءته رصاصة واحدة فى رقبته . لم يأخذ غيرها . أنت تعرف أن دكان أبيه فى شارع خيرت — وصل إليه الخبر فى دقائق . ذهبنا لنأخذ الشهيد ولكن الإنجليز كانوا قد نقلوه إلى القصر العينى . أخذناه من هناك . كان يتضوع مسكاً . . مسك الشهداء . . صلينا عليه ودفناه العصر . سيلقى الله برصاصة الإنجليز فى حنجرته . مات شهيداً ، له الجنة . . الإنجليز سيمحقهم الله محقاً . يوم القيامة ستشهد عليهم دماء الشهداء . . مسكين الحاج عبد المطلب . . سارقاه السكين . . إنه لا يشعر بهول ما أصابه . لولا ذلك لكان الآن فى عداد المجانين . . إنه هادئ ساكن ممتثل لأمر الله .

ووقف إبراهيم ذاهلا . لم يكن يعى شيئاً من آى القرآن التى يتلوها القارئ . ولم يكن يفكر فى شىء . لقد توقف ذهنه عن العمل كأنه آلة تعطلت فجأة . . تنبه عندما توقف القارئ عن القراءة . دخل السرادق . .

كان صابر جالساً إلى جانب الحاج عبد المطلب . لا يدرى إبراهيم كيف سبقه إلى هناك . تقدم إبراهيم فى تردد حتى وقف أمام صاحبه ؛ ومد يده معزياً . فاض الدمع من عينيه، ولكن شفتيه لم تنبسا بحرف .. قال الحاج عبد المطلب وكأن صوته يخرج من صدع شجرة : « حمزة دائماً شهيد يا إبراهيم . . أيام الحرب مع المشركين شهيد ، وأيام الحرب مع الإنجليز شهيد . سيدنا رسول الله قدم عمه حمزة ، وأنا قدمت ابنى حمزة . كلهم شهداء ، والشهداء تيجان المؤمنين . . » .

ونظر إلى الأرض لحظات ثم عاد يقول وكأنه يناجى نفسه : « ياخسارة يا أولاد . . سنة أولى معلمين عليا ويضيع منا هكذا فى شربة ماء ؟ . . ماذا حدث يامسلمون ؟ . . ماذا حدث ؟ . . والله ما أنا فاهم . . يقول لى صابر إنك زعلان لأن الله لم يرزقك بغلام . . وماذا فى ذلك ؟ . . كنت تريد السيد البدوى فأعطاك الله الست الطاهرة ، من الأحسن ؟ أنا أيضاً كان عندى حمزة طالب المعلمين العليا فأصبح عندى حمزة الشهيد . . . من الأحسن ؟ سبحانه وتعالى أعطى ، وسبحانه أخذ . . هل له شريك فى ملكه ؟ . . أخذ منى ابنى ليعطينا مصر ، مصر أم الدنيا ، بلد المشايخ والأسياد . . جنة الأرض ، هل نريدها مجاناً ؟ . . مش ممكن . ناس منا لا بد أن يدفعوا الثمن . . وأنا منهم . . قدمنا أولادنا لكى تسلم مصر . . أم الدنيا ، بلد المشايخ والأسياد . . أليس كذلك يا إبراهيم يا صياد ؟ . . لا جنة بلا شهداء ، وكل منا ينبغى أن يؤدى نصيبه من ثمن مصر . . جاءت قرعتى هذه المرة . . . كان ينبغى أن أفهم ذلك وأتقبل الخبر بصبر وإيمان، ولكنى كافر

بالنعمة يا إبراهيم . . أتدرى ماذا فعلت عندما جاءنى الخبر ؟ . . صرخت ولطمت وشددت شعرى . . فعلت فعل من لا يؤمن . . هل هذا كلام يا إبراهيم ؟ . . هل هذا هو العهد الذى أخذناه على الشيخ ؟ . أستغفر الله العظيم . . »

وسكت فجأة ، وشخص بصره إلى بعيد .

وكان القارئ يستعد لمتابعة تلاوة القرآن ، ولكن منظر وجه عبد المطلب أوقف البسملة فى حلقه ، فأنزل يديه بعد أن كان قد رفعهما إلى أذنيه ليبدأ القراءة ، وظل صامتاً . .

وقال أحد الجالسين هامساً فى أذن إبراهيم : « مسكين الحاج عبد المطلب . . . أصابه الجنون عندما جاءه الخبر . . . قفز من الدكان وجرى إلى شارع الدواوين ، هناك رأى شهيداً ممدداً على الأرض غارقاً فى دمائه والناس لا يجرؤون على الاقتراب منه خوفاً من الإنجليز . . كانوا ما يزالون هناك بالمترليوزات .. حسبه ابنه فهجم على واحد منهم يريد أن يخنقه بيديه . . تعثر فى طريقه ووقع . . ضحكوا عليه . . ارتطم رأسه بالأرض وغاب عن الوجود .. ذهبنا كلنا إلى قصر العينى ، تسلمنا حمزة ودفناه ، وأبوه غائب عن الوجود ، أفاق فى بيته بعد الغروب . . » وعاد عبد المطلب يتكلم . . زائغ البصر شارد اللب : «يرضيك يا إبراهيم ياصياد ؟ . . يدفنون ابنى بدون علمى؟ .. قالوا لى إننى كنت غائباً عن الوجود . . أنا أغيب عن الوجود ؟ تصدق أننى أغيب فى يوم حمزة ؟ . . ربنا يسامحهم . . »

وبعد لحظة ذهول مضى يقول : « ثلاثة بالله العظيم يا إبراهيم ،

لقد رأيت رسول الله النهارده . . رأيت وجهه كالقمر . . تبارك الخلاق ! عليه ألف صلاة وسلام . . نظر إلىّ نظرة تأنيب وعتاب وقال : عيب ياعبد المطلب عيب ، أنت مؤمن وصابر ومحتسب . . . ماذا جرى لك ؟ حزين على ابنك حمزة ؟ . . ماذا حدث عندما مات حمزة عمى ؟ . . . استقبلته ملائكة العرش ليدلوه على قصره فى الجنة . . وأنت حزين يا عبد المطلب ؟ . . هنيئاً لك شهادة ابنك . . سبحانه وتعالى يريد أن تحيا مصر . . مصر التى قال فيها جل جلاله (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) . . سبحانه يأمركم أن تقوموا على أعدائه لتخرجوهم من مصر . . . لا بد لذلك من شهداء ودماء . . أعز دم على الله دم الشهداء ، اختار الله ابنك ليكون دمه طهارة وكفارة عن مصر . . حزين على حمزة يا عبد المطلب ؟ . . هل يغضب العبد على مولاه ؟ . . من أغلى عندك : ابنك أم مصر ؟ . . قم ياعبد المطلب صلّ لله واستغفره واشكره على ما أنعم به عليك . . اشكره على سلامة مصر . . » .

واسترسل يقول بصوت عميق كأنه آت من وراء الأبد : « اليوم يا عبد المطلب مات من شباب مصر ثمانية عشر ؛ استشهدوا ليحيا هذا البلد المبارك .. حقاً ، الشجرة الطيبة لا تروى إلا بماء طاهر . . والأرض الطاهرة لا يطهرها إلا الدم الطاهر ، دم الشهداء . . شهداء بدر وأحُد طهروا أرض جزيرة العرب . . مادام هناك شهداء فهناك أرض كريمة طاهرة . . عندما يبخل الناس بدمائهم تذل أرضهم ، تموت ويموتون عليها بدون أن يدروا . . لا والله ياناس ، ماتموت أرضنا أبداً . . لن نبخل عليها بالدم أبداً . . بشراك بابنك حمزة . . بشراك وأنت السعيد



بشهادته . . أخذه الله منك وأعطاك مصر . . ».

وسكت الأب الثاكل لحظة ثم قال : « وأنت يا إبراهيم ياصياد . . ربنا أعطاك الطاهرة وتحزن ؟ . . أتعرف من الطاهرة ؟.. هى مصر . . ».

وسكت ، وساد صمت . . .

وشق الصمت صوت القارئ يقرأ القرآن . . ولأول مرة فى هذه الليلة أحس الجالسون فى السرادق أن كلمات الله تنفذ إلى قلوبهم وتعصرها عصراً . . لأول مرة بعد مأساة اليوم أحسوا أنهم مسلمون مؤمنون ، ربما لأن شعاعاً من نور نفذ إلى قلوبهم فأضاء ظلامها ، شعاع من مصر بلد الأنبياء والشهداء والعلماء والمشايخ والأسياد . .

* * *

بينما كان صوت القارئ يتردد فى الآذان بكلام الله كان إبراهيم يمسك بيد صابر ويبتعد به عن السرادق ويقول له : « صابر يابنى .. خذ قطار الساعة السابعة إلى دمياط ، ثم فى المحطة حتى لا يفوتك . . . من هناك أسرع إلى عزبة البرج ، قل لهم يسمونها « مصر » . . »

فنظر إليه صابر وقال فى دهشة : « مصر ؟ .. نسميها مصر .. ؟ »

ــ نعم مصر . . مصر ولدت من ضلعى اليوم . . ألم تسمع كلام عبد المطلب ؟ ربنا سبحانه وتعالى أخذمنا اليوم ثمانية عشر شهيداً على رأسهم حمزة ، وأعطانا مصر . . روح ياصابر ، الله يسترك يا بنى . .

ــ ولكننا قلنا لهم يسمونها الست الطاهرة . .

ــ نعم ، هى الست الطاهرة مصر . . قل لهم يسمونها مصر . . خذ .. هذان جنيهان لتذكرة القطار ومصاريفك . .

ــ وأنت ؟ . .

ــ أنا سأزور الست الطاهرة أخت الحسين غدا ، لأصلى وأدعو عند المقام ؛ ثم أذهب إلى طنطا لأزور السيد ، ومن طنطا إليكم ، سأكون عندكم فى بحر ٣ أيام . .

وفعل كما قال . . زار السيدة زينب ، ثم شيخ العرب السيد . عندما خرج من ضريح سيدى عبد العال وجد صمتاً شاملا مخيماً على البلد والدنيا . قالوا له إن اليوم حداد فى مصر كلها على الشهداء . كانت المتاجر كلها مغلقة الأبواب ، والشوارع خالية إلا من نفر قليل .

وفى سيره مر برجل يقف على ناصية حارة ، وقد أسند لوحة إلى الحائط وعلق عليها صوراً كبيرة لعرابى ومحمد فريد ومصطفى كامل وسعد زغلول ، والرجل ينادى بصوت مبحوح : « أبطال مصر ياجدع . . أبطال الاستقلال . . فلتحى مصر ! . . »

فألقى إليه إبراهيم نظرة شاردة وسأله : « بكم الواحدة ؟ . . »

ــ بقرش . . .

ــ هاتهم كلهم . .

ــ يحيا الاستقلال ! . . تحيا مصر ! . .

وأخذ يناوله الصور . . وبينما كان إبراهيم يخرج النقود من جيبه قال له الرجل : « سينفون سعد باشا إلى سيشل .. عشرة آلاف عسكرى إنجليزى ذهبوا إلى سعد فى بيت الأمة ليقبضوا عليه . كان نائماً ساعتها .. أطل عليهم من النافذة وأمرهم بالوقوف فوقفوا مكانهم لا يتحركون . . . أصل ربنا أعطاه قوة جيش كامل . وخاف قائدهم ، فتقدم نحو سعد باشا

ووقف تحت النافذة وقال : حرام عليك ياسعد باشا . . سلم نفسك أرجوك ، وإلا قطعوا رقبتى . . أنا رجل صاحب عيال . . أنا مش قدك ياسعد باشا . . اعمل معروف ! »

فقال له سعد : « والشهداء ياحضرة القائد ؟ . . »

— ثلاثة بالله العظيم ما قتلت أحداً . .

— والاستقلال ؟ . .

— ستأخذه مصر ياسعد . . . بس تعال معى أرجوك ولا تقطع عيش الأولاد . .

— أنا لن أخرج ولن أسلم . . . ولتفعل القوة بنا ما تشاء أفراداً وجماعات . . .

— ياسعد اعمل معروف . . لا تجعلنى أستعمل وسائل لا أريدها . .

— لا يهمنى . .

— هل يرضيك أن أهدم مقام السيدة زينب ومقام الحسين ومقام السيد البدوى وكنيسة مارى جرجس ؟ !

ومضى بائع الصور يقول : « هذا فقط هو الذى جعل سعد باشا يسلم نفسه . . إنه يخاف على أهل البيت والأسياد والمقامات . . قبضوا عليه وسجنوه ، والجرائد تقول إنهم سينفونه إلى سيشل فى آخر الدنيا ، لكى يموت هناك وحيداً حزيناً على مصر . . ولكن سعداً لن يموت ، إنه حامى مصر وراعيها ، وسيعود منصوراً بإذن الله . . »

ونظر إبراهيم إلى صور الأبطال ، ثم ضمها إلى صدره وسار ، فلحق به الرجل وقال : « ألا تريد علماً ؟ .. ألا تريد علم مصر لتعلقه

فوق الصور ؟ . . انتظر . . »

ثم عاد مسرعاً إلى المكان الذى كان يقف فيه ، وفتح صندوقاً كان على دكة خشبية وأخرج علماً مطبقاً ، عاد به إلى الحاج إبراهيم ونشره . . علماً أخضر عليه هلال وثلاثة نجوم تتألق وسط بساط الخضرة . . كان علما كبيراً طوله قرابة المتر . . وأعجب الحاج إبراهيم منظره فسأل الرجل عن ثمنه . . عشرة قروش ، دفعها وطوى العلم فى حنان وعناية ووضعه تحت إبطه وسار .

* * *

وصل إلى بيته فى القرية بعد سفر طويل متعب . لقيته زوجته وهى تبتسم وفى ملامحها شىء من أسف مستور لأنها أنجبت بنتاً ، وقالت: « كان بودى أن أعطيك السيد البدوى . . . »

ـ لا عليك ياخديجة . . . ربنا عوضنا خيراً . . أعطانا مصر . . . كما أعطى سيدنا عمران مريم . . أين هى ؟ . .

ودخل فرآها فى فراشها مستغرقة فى النوم ، رآها صغيرة رقيقة جميلة ، فأخرج العلم ، ووضعه عليها ، وابتسم وقال : « هذه مصر ، وهذا ثوبها .. ما أجملها . . ! أين الصور ؟ . . صور عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد ؟ . . »

وجاءته بها خديجة ، فمضى وأتى بشاكوش ومسامير ، وعلق الصور صفـاً واحداً فوق مصر ، وقال : « هؤلاء حماتها .. إنهم حماة أهل البيت والمشايخ والأسياد . . حماة مصر . . . »

* * *

بعد الظلام يكون النور ، ومن الليل يخرج النهار . .

مصر الرقيقة الجميلة راقدة فى فراشها، والفجر يقترب . . عمرها الآن سبع وعشرون سنة . تزوجت وولدت غلاماً يرقد على سرير صغير مقابل سريرها . إنها تراه بعين قلبها . تنظر تجاهه ولا تراه ، فإن الظلام دامس . .

اسمه « آدم » ، وعمره تسع سنوات . . سماه بهذا الاسم جده الشيخ إبراهيم الصياد . . مات الجد من سنتين مخلفاً لابنته هذا البيت والفدانين حوله ، وخلف لها أيضاً هموماً كثيرة سببها زوجها إسماعيل ، وخلف لرجاله أرضاً واسعة على الضفة الأخرى ، وهبه إياها وزير الأوقاف عندما لقيه مرة فى رأس البر وأعجب به وبصلاحه ، وهبه إياها ليبنى فى وسطها مسجداً . . وبنى المسجد من ماله فعلا . .

زوجها إسماعيل ليس فى الدار الآن . خرج من ساعة أو نحوها . إنه صياد ، وككل صياد هناك ينبغى أن يخرج للصيد بعد منتصف الليل بساعتين .

* * *

الشابة الجميلة الرقيقة الراقدة فى فراشها الآن لم تنم منذ خرج زوجها . إنها تفكر فيه ، تستعيد قصة زواجها منه وحياتها معه ، تستعيدها فى انتظار الفجر والنعاس .

إنه شاب جميل ، طويل عريض فى الثلاثين من عمره . . تزوجته من عشر سنوات ، لأن شكله أعجبها . كانت إذ ذاك زينة بنات القرية وابنة شيخها إبراهيم الصياد . كانت مرحة طروباً تضحك لها

الدنيا وتضحك هى للدنيا . . كانت رقيقة جميلة خفيفة ، تجرى هنا وهناك فى مرح كأنها طفلة . . كان رزق أبيها واسعاً واسمه ضخماً. كان أحسن صياديها وأكرمهم على أهلها . بنى الدار واشترى الحقل الصغير ، ثم بنى للقرية جامعها وقدم لأتباعه الصيادين الأرض الواسعة والمسجد على الضفة الأخرى .

كانوا ينادونها بالطاهرة وبالست ، ولكن أحب أسمائها إلى الناس كان « مصر » . عندما وصل صابر من سبع وعشرين سنة كانوا قد قيدوها فى سجل المواليد « الست الطاهرة » . . عندما وصل أبوها من القاهرة أراد تغيير الاسم ، اقترحوا عليه أن يضيفوا إلى اسمها فى السجل وورقة الميلاد عبارة « الشهيرة بمصر » ، وهكذا كان . . أصبحت الست الطاهرة — أو الطاهرة الشهيرة بمصر ، التى دثرها أبوها فى مهدها بالعلم الأخضر ذى الهلال والنجوم. ما زال العلم معلقاً على الحائط إلى جانب صور حماة مصر فوق السرير الذى ينام عليه آدم .

كانت تستطيع أن تتزوج شاباً أحسن وأغنى من إسماعيل هذا ، ولكنها كانت شابة . . استهوتها القامة المديدة والملامح السمحة ، واستجاب طبعها للصوت العريض العميق . .

تعلقت به بدون أن تنبس لأبيها بحرف ، ولكن أباها فهم . . لم يكن إسماعيل يعجبه . كان صياداً ماهراً وجريئاً ، ولكنه كان لاعباً كثير العبث ، وكان لا يصلى إلا مضطراً . . كان أبوه رجلا تقياً ، ولكنه لم يأخذ من أبيه تقاه . .

ذات ليلة خلا إبراهيم بابنته فى بيتها وقال لها : « أراك تنظرين إلى

إسماعيل رضوان .. »

ـــ أنا لا أنظر لأحد . .

وتصاعد الدم إلى وجهها ، وأسرعت إلى المطبخ لتدارى حالها. غابت طويلا ، فناداها يطلب العشاء . كان العشاء فولاً بالأرز وشيئاً من الجبن ونصف بطيخة . .

أتت بالأطباق ووضعتها على المائدة . كانوا يأكلون على مائدة لا على طبلية ، ويجلسون على كراسى لا على الأرض . . كان أبوها قد قرأ فى إحدى المجلات مقالاً من الكثير الذى نشر عندما كشفوا قبر توت عنخ آمون ، يقول إن المصريين القدماء كانوا يأكلون على الموائد ويجلسون على الكراسى ، ويستعملون الملاعق والسكاكين والشوكات . قال : «لا بد أن نأكل مثل أجدادنا. اشترى المائدة وما يلزمها. ناقشه فى ذلك صاحبه الشيخ رجب ،وقال له إن السلف الصالح كانوا يأكلون على الطبلية ، فقال له : «إن السلف الصالح كانوا لا يأكلون ، وكانوا لا يعرفون الطبلية . . كان غذاؤهم شيئاً من تمر وشيئاً من لبن ، وهذا طعام لا يؤكل على طبلية . . ولكن المؤكد أن أجدادنا المصريين كانوا يأكلون على الموائد ويجلسون على الكراسى . . » .

أمسك بالملعقة فى يده ونظر إلى ابنته وقال : « يعجبك إسماعيل رضوان ؟ . . »

ـــ لا يعجبنى أحد . . .

ـــ اسمعى يا مصر .. أمك قبل أن تموت لم توصنى إلا بشىء واحد. قالت لى : لقد سعدت معك يا إبراهيم . . ليست هناك نعمة للمرأة

أغلى من زوج تسعد معه . . هكذا كانت ستنا خديجة مع رسول الله خير الأزواج . . اختارته هى بنفسها . . وصيتى لك أن تزوج مصر بمن يعجبها ، بمن تختاره هى . . قلت لها : ولوشعرت أنه لا يصلح لها ؟ فقالت لى : مصر تعرف ما يعجبها وما لا يعجبها ، وما يعجبها يصلح لها . . »

بعد لحظة صمت قالت مصر : « أنا لا أفكر فى الزواج الآن . . »

— بل تفكرين .. أنا أقرأ هذا فى عينيك، وأوان زواجك قد حان.. فهل يعجبك إسماعيل ؟ . . هل تختارينه ؟ . .

— لم أسمع أن البنات فى بلدنا يخترن أزواجهن بأنفسهن . .

— لقد حكيت لك ما قالته لى أمك . . كان هذا أحد شيئين طلبتهما فى حياتها ، الأول أن أبنى جامعاً للصيادين على بر السنانية ، والثانى أن أزوجك بمن تختارين . . ما رأيك ؟ . .

فسكتت ، فأعاد السؤال . . واستمرت على صمتها ، فنهض وهو يقول : « صمت البنات رضا . . ستتزوجين إسماعيل رضوان . . وفقك الله معه . . »

* * *

ولم يوفقها الله معه . . إسماعيل كان دائماً شاباً مفتوناً بنفسه مغروراً بما منحه الله . . على عادة الكثيرين من الشباب الذين لم يكتب الله لهم حظا كبيراً من السعادة ، كان يكسب كثيراً وينفق أكثر. كان لا يحفل بزوجته . كان يعتقد — كأترابه ممن هم على شاكلته — أن الاهتمام بالزوجة ضعف ، وأن الاستماع لرأيها لا يتفق مع كمال الرجولة . كان

يراها تحبه وتعجب به فيسرف في إهمالها ، حاسباً أنه مهما فعل فسيظل كما هو سيد البيت والقلب ومحط النظر .

حتى جاء يوم عرف فيه أن مصر ليست كغيرها . .

كان ذلك في أوائل أحد الأصياف ، وقد بدأت الحياة تدب في مصيف رأس البر على طرف البر المقابل . هو وأمثاله من شباب الصيادين كانوا يرون أن الصيف والمصيف فرصة للعمل والكسب والفسحة والفرجة واللعب والمتاع . هناك نساء كثيرات غريبات ، وهناك مقاه ومشارب وفنادق وأشياء كثيرة تجتذب هوى الشبان . .

وعاد مرة مع الصبح . [وجد مصر واقفة على الباب في انتظاره . أراد ولوج الباب فقالت : « إلى أين ؟ . . »

— إلى بيتي . . إنني متعب وأريد أن أنام . .

— هذا ليس بيتك . . بيت الرجل هو مأواه بالليل . .

فقال في عنف وازدراء : « هل تريدين تأديبي ؟ . . »

— ذلك واجبي . .

— تعتزين علي لأن البيت بيت أبيك ؟ . .

— كان بيتك أيضاً طالما احترمته . .

— والآن ؟ . .

— ليس بيتك . . إنه بيت مصر ، ولن تدخله إلا إذا عرفت حقه . .

— اسمعي يا مصر . . أنت تعرفين أنني مجنون . وإذا مضيت الآن فلن أعود . .

— ستعود عندما تستحق العودة . .

كان أبوها ما زال على قيد الحياة . كان ينام فى غرفة علوية . فتح النافذة ونظر بدون أن يقول شيئاً . نظر إليه إسماعيل وقال :

« يا عمى إبراهيم . . يعجبك هذا ؟ »

فلم ينبس الرجل بحرف . .

— يا عمى الشيخ إبراهيم ، هذا بيتى . . هل ترضى أن أمنع من دخول بيتى ؟ . .

ظل الرجل صامتاً ، ولكن ملامحه كانت تنطق بأنه سيتدخل لحماية ابنته إذا تجاوز إسماعيل حده . .

وقال إسماعيل لمصر : « إذن أعطينى ملابسى . . »

— لا ملابس لك عندى . . لقد تزوجتنى بثوبك هذا الذى عليك ، وبه تعود من حيث أتيت . . وأنت مدين لأبى بمال كثير . .

— إذن آخذ شباكى وأدواتى وأمضى . .

— ولا هذه . . هذه أدوات لكسب العيش للأسرة وليست لك وحدك . .

— وماذا ستعملين بها ؟ . .

— سأخرج للصيد . . إن مصر ليست فى حاجة إلى أن يعولها رجل . .

وأغلقت الباب ، وتركته فى الطريق . . وأغلق الشيخ نافذته . . وأطل على ابنته من أعلى السلم وقال : « ياطاهرة . . يا مصر .. أنت جديرة بأمك خديجة . . . نامى يا بنتى ولا تخافى . . . نامى فقد طال سهرك وتعبك . . دعى السهر والتعب له . . بارك الله فيك . . »

الشهور التى أعقبت ذلك كانت شهور حرب صامتة بين مصر

وإسماعيل . . ظن أنها لن تصبر على بعده، ولكنها صبرت . . وحسب أنه يستطيع الاستغناء عنها بالعيش مع أمه وأخواته ، فتبين له أنه لا يطيق ذلك طويلا . . وسعت أمه لتزويجه بامرأة أخرى ، فلم تتحرك مصر ولا أظهرت جزعاً .. كان أبوها يقول لها : « أنا أعرف أنك تحبينه ، ولكنى أحب منك هذا الثبات وذلك الإباء . . مثلك يامصر لا يستطيع أحد أن يفرض عليها وصايته . . استمرى فى ذلك ، بهذا وحده تستعيدين زوجك . . . »

— إننى لا أريد أن أستعيده . . أنت تعرفنى ، إذا أغمضت عينى عن شىء فلن أفتحها عليه أبداً . . .

— قولى ما تشائين يا مصر ، ولا تنسى أننى أبوك إبراهيم . . على يدىّ هاتين حملتك ، قلبك هذا أنا وضعته فى صدرك ، وأنا أقرأ ما فيه كأنه كتاب مفتوح . .

— وماذا تقرأ فيه ؟. .

— أقرأ أنك تريدين أن يعود لك زوجك . .

— غير صحيح . .

— بل صحيح . . أنت وفية يامصر . . أنت رقيقة يابنتى ، أقوى مافيك هو أضعف مافيك : قلبك . . إذا أحببت أخلصت .

— وإذا كرهت ؟ . .

— أنت لا تكرهين إلا الخيانة . . وإسماعيل لم يخنك بعد . .

* * *

بعد شهور مات أبوها إبراهيم الصياد . مات على شط السنانية عند

جامعه الذى بناه هناك . كان يوم جمعة فى شهر يناير ، والشتاء قارس والصيادون هناك أهلكهم الجوع . ذهب إبراهيم وحمل إليهم أرزاً كثيراً وسمناً ودقيقاً وخروفين . . صاوا معه الجمعة وطبخوا وأكلوا ، وضحك أولادهم وخرجوا يلعبون وملأوا الدنيا ضجيجاً ، وجلس هو على عتبة الجامع ينظر إليهم . .

بعد قليل أقبل عليه سلامة العزبى حارس المواشى للمهايرة ، أسرة عبد المجيد ماهر ، ذلك الرجل الموسر الذى يملك هو وأسرته الكثير من أراضى النخيل والقمح والأرز التى تغطى البر الغربى قبالة عزبة البرج وعزبة اللحم . . مئات الفدادين تغطيها غابات النخيل وتسرح فيها ماشية من بقر وجاموس وغنم وخيل . .

قال سلامة : « صحيح ياعم إبراهيم : الغنى غنى النفس. أنت هنا على عتبة جامعك وليس عليك إلا ثوب من الدبلان مثلى أنا سلامة الفقير ، ولكنك أطعمت وأسعدت ، وهؤلاء الأولاد الذين يضحكون يعبرون لك عن شكرهم . . وهؤلاء الذين أعمل عندهم يملكون هذا كله ، ولكنهم لا يطعمون أحداً ولا يضحك فى وجههم طفل . . »

فنظر إليه إبراهيم طويلا ثم قال : « كيف حال امرأتك ؟ . . »

— الحمد لله ، زالت عنها الحمى ، وهى فى طريق التحسن . .

— ابنتى مصر أرسلت لامرأتك دجاجتين ، وطلبت منى أن أحجز لها نصيبها من الأرز والسمن ، خذه من صابر . .

— الله يعلم أن زكية امرأتى تدعو لك ليل نهار . .

وسكت لحظة ثم قال : « زكية عندها هدية لآدم . . »

– هدية لآدم ؟ . . مِن زكية ؟ . . ما الهدية ؟ . .

– حصان . . . مهر صغير . . عمره ثمانية أشهر . .

– ومن أين لزكية هذا المهر ؟ . .

– ولد مريضاً وأرادوا أن يتركوه يموت . . كانت هى التى قامت على ولادته . . طلبت من شطا الخولى أن يعطيها إياه . . ففعل بإذن الحاج عبد المجيد .. أخذناه وداويناه .. والله ياشيخ إبراهيم كنا نرضعه بأيدينا.. والآن صح وكبر وأصبح مهراً جميلا . .

– ولماذا لا تحتفظون به ؟ . .

– ليس لدينا ما نطعمه به . . إنه يأكل كثيراً ، والحاج عبد المجيد لا يسمح بأن يرعى فى أرضه . . فتقبله منا هدية . .

– قبلته . .

وذهب سلامة العزبى فغاب بضع دقائق ثم عاد يجر مهراً صغيراً لونه بنى فاتح ، رشيق الجسم رفيع القوادم حسن العنق صغير الرأس تزين جبينه غرة بيضاء كأنها نجمة ، وفى قوادمه وخوافيه تحجيل بديع ، وأحنى المهر رأسه فتناول إبراهيم معرفته الشقراء ومشطها بيده وجعلها كلها على يمين رقبته ، وقال وهو يتأمله : « ما أجمله ! .. هذه أجمل هدية أهداها الله للإنسان . . »

ثم قام إليه ومر بيده على رقبته وضمه إليه وقال : «قال سيد المرسلين : الخير معقود بنواصى الخيل إلى يوم القيامة .. هكذا قال الصادق الأمين ..»

وسمع صوت ابنته مصر من بعيد فقال : « مصر .. ماعلمت أنها ستلحق بنا . . »

وعندما وقع بصرها على المهر أسرعت إليه وأمسكت برأسه وقالت :
« ما أجمله ! . . لمن هذا الفرس الجميل ؟ . . »

ـ لآدم ابنك . . . .

ـ لآدم ابنى ؟ . . ما أجمله من حصان ! . . ما أجمل آدم على ظهره ! . . هل اشتريته ؟ . .

ـ لا ، بل أهدته لنا أم الخير زكية وزوجها سلامة . .

وبعد لحظة سألها : « ما الذى أتى بك ؟ لم تقولى إنك آتية . . »

ـ خفت عليك . . . رأيتك متعباً هذا الصباح . . ما كان ينبغى أن تخرج اليوم . .

ـ الحق أننى متعب . . ولكن ما كان يمكننى أن أتخلف عن هؤلاء الإخوان بعد أن وعدتهم . .

ـ إذن . . هيا نعود . لقد قمت بما عليك ووفيت بوعدك . . ماذا نسمى هذا المهر الجميل ؟

فقال سلامة : «نسميه نسراً . . إن له عينى نسر . .»

فقال إبراهيم : « لا..نسميه ريحان .. ريحان هو حصان فرعون .. حصان رمسيس الذى رأيناه يجر عجلته الحربية فى الصور . . هذا هو بعينه . . انظرى إلى رأسه وجسمه وقوائمه . . أريد أن أرى حفيدى آدم على ظهر جواد كهذا يحارب أعداء مصر بلد الشهداء . . بلد أهل البيت والمشايخ والأسياد . .»

قالها بصوت هادئ خفيض . . واسترسل يقول : «خذى ريحان وعودى إلى بيتك يامصر . . عودى لابنك . .»

– وأنت ؟ . .

– أنا متعب . . أعتقد أن الأفضل أن أستريح هنا الليلة . . .فى هذه الغرفة الملحقة بالجامع . . سأستريح إلى الغد . . اتركى لى صابراً . . سيعنى بى صابر وسلامة وأم الخير

* * *

ولم تكن هذه أول ليلة يقضيها إبراهيم الصياد فى السنانية ، كان يحب هذا البر وأهله وجامعه . تركته ابنته ومضت تجر ريحان وتمسح رقبته وظهره . . ووجدوا صعوبة فى إنزال ريحان فى القارب الشراعى ، ولكنه نزل على خوف ، وظل واقفاً برهة والقارب يسير الهوينى ، ومصر تمسح رقبته وتربت جبينه . . فأنس إليها وبرك ووضع رأسه على الأرض عند قدميها .

* * *

فى أثناء ذلك كان أبوها إبراهيم الصياد قد انتقل إلى الحجرة الملحقة بالجامع . كان فى الحجرة سرير متواضع صغير . . ما إن أراح الرجل جنبه عليه حتى أحس أنه مريض جدّاً . . صنعت له زكية شراب ينسون تناوله ونام . . فى منتصف الليل صحا وأيقظ صابراً وقال له :

– لم أصلّ المغرب والعشاء ، هات لى ماء أتوضأ . .

وتوضأ وصلى ، ثم نظر إلى صابر وقال : « لا أدرى إن كنت أرى شمس الغد . . . إن روحى تذهب منى كأنما تغوص فى بحر عميق . . إذا متّ فادفنونى خلف جامعى هذا . لا تنقلونى . . لا تبكوا علىّ ولا تلطم النساء خدودهن . هذا حرام . اطلبوا لى الرحمة والمغفرة ،

فى هذا كفاية . . وصيتكم مصر . . والصيادون . . وآدم . . إذا رجعت مصر لإسماعيل فكن أنت إلى جانبها دائماً . . لا تخافوا عليها . . ربنا مع مصر دائماً ، لأن مصر مع الله دائماً . . »

وسكت لحظة كأنما يسترد أنفاسه ثم عاد يقول : «حافظوا على هذه الأرض التى يقوم فيها الجامع . . إنها أرضكم كلكم ، أعطانى إياها عبد الرازق باشا وزير الأوقاف عندما قابلته فى رأس البر من خمس عشرة سنة . . »

ثم جعل يشير بيديه ويقول : «كل هذه الأرض ملككم . . . من حدود نخل الحاج عبد المجيد ماهر إلى شاطئ النيل أرضكم . . أرض كثيرة جدًّا محددة فى الحجة التى أعطانى إياها عبد الرازق باشا عندما زرته فى الوزارة فى مصر . . . كل الأرض التى أمام عزبة البرج والتى تمتد إلى رأس البر أرضكم . . أخذتها من الوزارة لتكون وقفاً للجامع وأرضاً للصيادين يقيمون فيها فى أثناء موسم الصيد ويبنون فيها بيوتهم إذا أرادوا . . أرضكم هى هذه الضفة والضفة الأخرى ، فحافظوا عليها . »

وسكت لحظة ، فقال صابر : «لا أدرى ياسيدى الشيخ . . ولكنى سمعت أن ورثة الحاج عبد المجيد يريدون أن يستولوا على هذه الأرض . . »

— لن يستطيع ذلك أحد .. لا ورثة الحاج عبد المجيد ماهر ولا غيره.. مادمتم متحدين ومتمسكين بحقكم ، فلن يأخذ أحد منكم شبراً . . هكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم متحدين فنصرهم الله . . هذه الأرض مقدسة ، أخذناها لنبنى فيها الجامع فلا تفرطوا فيها . . اتحدوا واثبتوا ولا تخافوا ، ينصركم الله . .

استمع صابر لهذا الكلام صامتاً بدون أن ينبس بكلمة . كان ما يسمعه أكثر مما يستطيع أن يدرك . ثم عاون الشيخ إبراهيم على الرقاد وغطاه ، ونام على عتبة البيت . .

قبل الفجر بقليل فاضت روح الشيخ إبراهيم الصياد فى سكون . لم يشعر بذلك صابر . كان مستغرقاً فى النوم عندما انتقلت روح شيخه إلى الدار الآخرة . . وكما أوصى الشيخ : دفنوه فى اليوم التالى خلف جامعه . شطوط دمياط كلها حضرت الجنازة والصلاة والدفن . ارتجت ضفتا النيل ، فقد مات رجل عظيم وولد ولى جديد . .

بعد أسابيع قامت فوق الضريح قبة ، وبدأت وفود الناس تزور المقام وتقرأ الفواتح وتنذر النذور . .

وأصبح صابر حارس مقام سيدى إبراهيم الصياد ولى الله وراعى الصيادين، وزاد عمران مسجد سيدى إبراهيم الصياد إلى جانب الضريح ..

من ذلك الحين لم يرم صياد شبكته فى الماء إلا قال : « بركاتك ياسيدى إبراهيم ياصياد . . » ولم يبخل سيدى إبراهيم الصياد ببركاته على أحد . .

* * *

بعد الظلام كان النور ، ومن الليل خرج النهار . .

النور ينفذ الآن من شباك صغير أعلى الباب . أشعة مترددة تلتمس طريقها فى ظلام الحجرة ، وتستقر على الوسادة التى يضع عليها الغلام آدم رأسه . لقد تحرّت الأم أن تكون الوسادة فى هذا الموضع حتى يقع أول شعاع من الضوء على وجه ابنها الحبيب . بالنسبة لها

يولد ابنها مرة كل يوم ، عندما يقوى الشعاع تستطيع تبين ملامح وجهه الجميلة ، بعد قليل تنهض وتشد حبلاً يجر ستاراً على النافذة العالية فيسود الظلام من جديد ، ولكن أشعة النور تتسلل من كل جانب .

بعد أن تمتلىء عيناها من وجه ابنها تنام .

تلك كانت أحلى أوقات نومها . . تنام فى عمق وصورة ابنها بين جفنيها . .

نامت ساعة وبعض ساعة . أيقظها طرق على الباب . تحركت فى فراشها ولم تكترث . الطارق ريحان . . ريحان ينهض من مرقده عندما يرى أشعة الشمس.. عمره الآن سنتان وبضعة أشهر.. إنه طفل أتى يبحث عن طفل صديق ليلعب معه . .

ولكن الطفل الصديق فى نوم عميق . .

الأم الشابة الجميلة الراقدة فى فراشها تعود إلى النوم . ريحان يفهم وينطلق بكل شبابه يدور حول الحقل ويصهل . إنه شاب قوى سعيد يعرف حدود بيته ويدور حولها رافع الرأس والذيل . يدور ويدور ، ويقف وسط الحقل ويهز رأسه كأنه يتحدى ، ثم ينفد صبره بعد نصف ساعة أو قريب منه ، فيجرى إلى الباب مرة أخرى ويضربه بقادمته ويصهل . . هنا يصحو آدم فيقف فى فراشه وينادى أمه : « ريحان .. ريحان . . افتحى لريحان . . »

وتفتح لريحان ، فيدخل ويقترب من الغلام ، ويتشممه كأنه يسلم عليه ، آدم يقبله ويضم عنقه. يخرج الحصان ويقف على الباب. بسرعة تضع الأم سرجاً خفيفاً على ظهره، وترفع ابنها وتجلسه على السرج ،

وتناوله العنان فى يده . ويجرى الحصان خبباً . فى خيلاء يمضى فى الحقل وصاحبه الصغير على ظهره . .

الأم تنهض وتعدّ الإفطار لها ولابنها . تضعه على خوان صغير فى مدخل الدار . على خطوات تضع طعام ريحان . بعد دقائق تأكل الأسرة كلها معاً : مصر وآدم وريحان . .

بدأ يوم جديد فى حياة مصر . . إنها تعمل بيديها كل شىء فى بيتها ، وتشرف بنفسها على كل شىء فى أرضها . . خمسة رجال ونساؤهم يعملون معها فى البيت والحقل ، ولكنها الأولى حين يبدأ النهار ، والأخيرة عندما يحين موعد النوم . . يدها فى كل شىء وعينها فى كل مكان . . رجالها ونساؤها يعملون فى اجتهاد وصبر ، ولكن أحياناً ينقص عملهم الحب . . مصر تقول : « لا يكمل عمل بغير حب . . »

إنها تحزن حزناً عميقاً عندما ترى من العاملين معها تقصيراً أو إهمالا. هذا هو الشىء الذى يغضبها أكثر من غيره . . كانت تحب مَن حولها وتضحى بمالها وجهدها فى سبيلهم ، وكانت تدهش إذ ترى الآخرين يضنون على رزقهم بالعمل . كانت ترى ذلك أنانية وجمود قلب ونضوباً فى الحب . كانت إذا غضبت لم تقل كلمة جارحة ، بل يتجلى الغضب فى عينها وتسكت . . كان ذلك عقاباً كافيا للمسىء . .

أول ما تبدأ به عملها زيارة الجاموستين والبقرة فى الزريبة . مسعد وزوجته ناعسة مسئولان عنها . لم تجد أحداً منهما هناك . . فتحت الباب ودخلت . كانت البهائم قلقة فى مرابضها . فتحت لها الباب فخرجت ، لأنها كانت مشتاقة إلى الهواء . . فتحت النافذة فدخل النور ، كانت

الأرض فى حاجة إلى غسل . . فتحت صنبور الماء وأخذت المقشة ومضت تعمل . . أقبلت ناعسة مسرعة ، وأرادت تناول المقشة منها فرفضت . .

ــ ما دمت تنامين حتّى الضحى فلماذا تتعبين نفسك ؟

ــ لم أنم حتّى الضحى ، ولكن مسعد جاءه المغص . .

ــ مسعد لم يجئه المغص ، سهر عند شريبة وشرب عنده كعادته وجاءك متأخراً ، فطلب طعاماً وأزعج الأولاد ، ثم نام متأخراً . . .

ــ إذن فقد قالوا لك ؟

ــ سمعت بكاء الأولاد . .

ــ قسمتى هكذا . . نحن النساء لا نستطيع أن نصلح الرجال . .

ــ بل تستطيعين . .

وأقبل مسعد ، رأى المقشة فى يد سيدته فأسرع يريد أن يأخذها منها وهو يقول : « أستغفر الله ياست . . والله لا تنظفين الزريبة أبداً . . »

ــ ذهبت إلى دكان شريبة وسكرت ؟ . .

ــ لا والله ياست . . ثلاثة بالله . .

ــ لا تحلف كاذباً . . ذهبت وشربت. . تستطيع أن تفعل بنفسك ما تريد ، ولكن ماذنب أولادك وزوجتك والبهائم ؟

ــ والله ياست ياطاهرة الولد قنديل هو الذى أخذنى . .

ــ إذن اذهب إلى قنديل وخذه واخرجا من الأرض . . لا حياة لكما هنا بعد ذلك السكر . .

فاستدار ومشى بدون أن يقول حرفاً . كانوا جميعاً يعرفون أن

مصر إذا غضبت فهى تعرف لماذا تغضب ، وأنها على حق عندما تغضب، وأنها لا ترضى عن المسىء إلا عندما ترى أنه قد عرف خطأه ولن يعود إليه . .

وأقبل رجل آخر ، فدخل لينظف الزريبة . ووقفت مصر تنظر إليه وهو يعمل ، وترشده فى عمله ليكون العمل دقيقاً متقناً كما تريده ، فإذا هى فى ذلك سمعت أصواتاً من بعيد ، ثم أقبل عدد من الرجال فى ملابس الصيادين . كانوا خمسة نفر يتقدمهم رجل لطيف الهيئة وسط فى العمر ، ولكنه مهموم بادى الكآبة ، فحيا وقال : « لا تؤاخذينى ياست ياطاهرة ، ولكننا متعبون جداً ، ولم ينصفنا أحد من رجال بلدكم.. »

ــ ولماذا تأتونى ؟ ألم أقل لكم إن الرجال لاينبغى أن يطلبوا الإنصاف من أحد ؟ . . لا بد أن ينتصفوا لأنفسهم . .

ــ لقد حذرنا من ذلك عمدة بلدنا . .

ــ لأنه يخاف . .

ــ مع أنه لا مجال للخوف ، فإن خصومنا لا يستطيعون فصله من العمودية . .

ــ هؤلاء الرجال يخافون ، لأنهم تعودوا الخوف . . يخافون ولو لم يكن هناك ما يخيف . . .

ــ وما العمل ؟

ــ هل أنتم أيضاً خائفون ؟

ــ لا ، نحن لا نخاف . .

ــ بل خائفون . . لأنكم لم تتعودوا أن تأخذوا حقكم بأيديكم . .

ـ لأننا لا نريد أن ندخل فى عراك طويل مع أولئك الناس . .

ـ بل لأنكم خائفون . . لا بد أن تطردوا الخوف من نفوسكم . .
لقد حرموا عليكم دخول منطقة الصيد ومنعوكم من نزول البر الثانى للعمل وإصلاح الشباك وزيارة الشيخ ، فلماذا لا تقتحمون هذه المواقع ؟ . .

ـ بالقوة ؟

ـ بماذا إذن ؟ ألم أقل لكم إنكم خائفون ؟ هذه الأرض أرضكم ، لكم دائماً الحق فى النزول هناك والإقامة والعمل والزيارة، فلماذا إذن تحرمون هذا الحق الآن ؟

وكان إسماعيل زوج الست الطاهرة مصر قد أقبل من بعيد ووقف يسمع ، ثم أشعل سيجارة وقال : « أنتم تنسون أن المهايرة قد اشتروا هذه الأرض كلها أخيراً . . »

فقالت مصر : « غير صحيح.. إنهم لم يشتروا هذه الأرض، بل يريدون أن يضعوا يدهم عليها بالقوة . . »

ـ ومن قال لك إنهم لم يشتروها ؟

ـ لأن هذه الأرض كلها تبع لمقام الشيخ إبراهيم الصياد . . .

ـ أبوك . .

فرد أحد الصيادين قائلا : « بل أبونا كلنا . . أبو هذه الناحية . . »

فقال إسماعيل وهو يهز كتفيه : « ليكن كما تقول ، ولكن هذا ليس معناه أننا نضع يدنا على هذه الأرض . . »

فقالت مصر : « هذه أرضنا ، أرض أولئك الناس . . منذ مئات السنين هى أرضهم ، فكيف يُمنعون من النزول بها الآن ؟ »

– قلت لك إن المهايرة اشتروا الأرض كلها . .
– قلت لك إنهم لا يمكن أن يشتروها . .
– (فى غضب) اشتروها . .
– كيف يشترونها إذا كان أبى قد حصل عليها كلها من وزير الأوقاف لكى ينشئ فيها مسجداً ومدرسة وأشياء أخرى للصيادين ؟ . .
– وما الذى يثبت ذلك ؟
– عندى ما يثبته ، ولكننا لن نكتفى بهذا الإثبات .. لن نعتمد على الوثيقة التى بيدنا فقد يخوننا الآخرون ويؤيدون عدونا . . إننا لا ننسى أبداً أن الحق يتلاشى أمام القوة . . هؤلاء الرجال سيحمون حقهم بأيديهم . .
– أمام ورثة الحاج عبد المجيد ماهر ورجالهم ؟ . .
– أمام الدنيا كلها . .
– هذه مغامرة غير مأمونة . . . هؤلاء الناس أقوياء جداً . .
– إنهم ليسوا بهذه القوة . . ولكنهم سيصبحون أقوياء جداً إذا ضعفنا نحن . .

فقال واحد من الصيادين : « نحن لن نضعف . . »

فقالت الست الطاهرة : « اثبتوا فى مكانكم وأنا معكم . . »

ثم التفتت إلى الصيادين وقالت : « إذا كنتم مستعدين لمواجهة خصومكم واستعادة أرضكم وحقوقكم بالقوة فستنالونها . . »

فرد نفر من الصيادين : « نحن مستعدون . . »

– المهم أن تكونوا متحدين جميعاً . .

ــ متحدون . . هذا رزقنا وقوت عيالنا . .

ــ إذن اذهبوا واجمعوا أنفسكم وتأكدوا أنكم تقفون صفا واحداً وتعالوا لكي نرسم خطتنا . .

ــ سنفعل ذلك ونعود إليك غدا . .

وذهبوا بجملتهم وهم يتحدثون فيما بينهم ، وسارت مصر ومن خلفها إسماعيل حتى دخلا البيت وأغلقا الباب ، فجلس إسماعيل ووضع ساقاً على ساق وقال : « أتدرين ماذا تفعلين . . ؟ »

فلم ترد عليه ، ومضت تصلح من شأن حجرتها . . فعاد يقول فى شىء من التحدى :

ــ إننى أكلمك ..

ــ سمعت . . ماذا تريد ؟ . .

ــ إننى زوجك ، وعندما أكلمك فلابد أن تصغى لما أقول . .

ــ هل أنت متأكد أنك زوجى ؟ . .

ــ إذن . . فماذا أكون ؟

ــ أين كان زوجى منذ ثلاثة أيام ؟ . . آخر مرة رأيتك كانت يوم الأربعاء . .

ــ لقد نمت هنا أمس وكل ليلة ، وخرجت فى الفجر للعمل . .

ــ ومتى أتيت أمس وأول أمس؟ . .

ــ هل تحاسبيننى على دخولى وخروجى كأننى طفل ؟ . .

ــ أحاسبك كزوجة . .

ــ ومنذ متى كان للزوجة الحق فى أن تحاسب زوجها ؟ . .

– كل زوجة جديرة بهذا الاسم لها الحق فى أن تحاسب زوجها ..

– طول عمرنا فى هذه المشكلة . . وقد قلت لك ألف مرة إننى لن أسمح لك بأن تحاسبينى . . أنا رجل البيت ولى الحق فى أن أدخل وقتما أشاء وأخرج وقتما أشاء . . هكذا كل الرجال مع كل النساء . .

– وهل كل الرجال يمكثون فى الحانة إلى منتصف الليل وينفقون مكسبهم ثم يعودون إلى بيوتهم لمجرد النوم ؟ . . هل تسمى هذا حقوق الرجل ؟ . .

فقال فى سأم : « قلت لك لست طفلا . . إننى لست ابنك . . أنا زوجك . . أنا سيد البيت ، ولى الحق أن أتصرف كما أريد . . »

– من المستحيل أن أقبل هذه المعاملة . . ليست هناك امرأة لها كرامة تقبل ذلك . .

– أنت مغرورة ، لأنك ابنة الشيخ . .

– أنا زوجة ، وأعرف حقوقى . .

– تمسكك بحقوقك هذه سيخرب البيت . .

– لولا أننى أعمل فى هذا البيت طول النهار والليل لما ظل قائماً .

– وأنا ؟ . . هل ألعب ؟ . .

– نعم . . أنت تلعب . .

– لو قلت هذا مرة ثانية فإننى سأخرج ولن أعود . .

– تستطيع أن تخرج بلا عودة إذا شئت . .

– ستندمين . . .

ـ أنا فى ندم منذ تزوجتك . . .

فأخذ كوفية صوفية كان قد وضعها على أريكة، فوضعها على كتفه ونظر إلى مصر نظرة طويلة وقال : « إذا خرجت فلن أعود ..»

ـ هذا تهديد ؟ . .

ـ أردت أن أنبهك فقط إلى أنني حرّ فى أن أتصرف كما أريد ، أدخل عندما أريد وأخرج عندما أريد . . إننى رجل حر فى أن أتصرف كما أشاء . .

ـ إنك هنا زوج قبل كل شىء ، وعليك أن تحترم التزاماتك كزوج .

ـ لست فى حاجة إلى من يعلمنى واجبى . . قلت لك إنى حر أتصرف كما أريد . .

ـ وأنا لا أقبل هذه المعاملة . .

ـ إذن فأنا ذاهب إلى حيث أعيش رجلا حرًّا ... ولن أعود حتى تقلعى عن هذا التفكير . .

ـ ماذا تقصد بحريتك هذه ؟ . .

ـ أقصد ألا يحاسبنى أحد على ما أعمل كما تفعلين أنت معى . . ليست هناك امرأة واحدة تفعل ذلك مع زوجها . .

ـ لأنهن لا يحببن أزواجهن . . لا توجد رابطة حب بينهم ، هناك رابطة خوف . .

ـ وأنت لا تخافين منى ؟ . .

ـ قطعاً لا أخاف منك . .

— لماذا لا تخافين منى ؟ . . هل أنا أقل من غيرى من الرجال الذين يخيفون زوجاتهم ؟ . .

فأدارت وجهها إلى النافذة ومسحت دمعة سالت على خدها وقالت :

— أنت لا تفهم ذلك . . .

— ما الذى لا أفهمه ؟

فالتفتت ونظرت إليه طويلا ، ثم قالت : « يا إلهى ! .. كيف خدعت فيك على هذه الصورة ؟ . . »

فهز كتفيه فى بلادة وقال : « ماذا تقولين ؟ »

— لا شىء . .

— لقد تعبت منك ومن الحياة معك . . تعبت ولم أعد أستطيع . . طول حياتنا خصام ، خصام . . اسمعى . . هذه هى آخر مرة أقول لك فيها ذلك . . سأعيش هنا حرًّا كما أريد . . ولا أريد أن تسائلينى أو تضايقينى . .

— لن أقبل . .

— ذنبك على جنبك . . هذه المرة أنت المسئولة . . أنا ذاهب الآن ولن أعود . .

— افعل كما تريد . .

فنقل كوفيته من كتف لكتف وأشعل سيجارة وخرج . .

ووقفت واجمة . كان الدمع فى عينيها ، ولكنها لم تبك . لقد أحبت هذا الرجل من صباها . فى سنوات شبابها الباكر كان رفيق أحلامها .

كانت أعز أمنياتها أن تتزوجه . لم يكن أبوها راضيا عنه ، ولكنه رأى تعلقها به فكف عن المعارضة وترك القدر يجرى فى طريقه . وتزوجته ، فلم تسعد معه إلا فترة قصيرة جداً . كانت طفلة كبيرة تعبث بها أمواج الحب فلم تنتبه إلى استبداد هذا الرجل بها وعدم تجاوبه معها . كان شاباً جميلا مغروراً ، نشأ منذ الصغر مدللا أنانيا كسولا . عندما فتحت عينيها على حقائق الدنيا واتسع قلبها ، أحست أن هذا الرجل يلعب معها . أحست أحياناً أنه لا يحبها كما تحبه ، ولكن كبرياءها أبت الاعتراف بهذه الحقيقة . برغم كل شىء ظلت تحبه ، وتأمل أن يتحسن حاله ويفهم قدرها ويبادلها عواطفها . ظلت تأمل ذلك ، برغم أنه كان من الواضح أنه مستحيل . . ولكن الحب أعمى ، وأصم أيضاً . .

ومنذ تزوجا ، كان الخصام بينهما مستمراً والأزمات متصلة . لم يتحسن هو شيئاً ولا غير طبعه ، ولا هى تنازلت عن كبريائها أو سلمت مصيرها للمقادير أو استسلمت للظلم والامتهان كما تفعل النساء حولها . . . ظلت دائما رافعة الرأس متمسكة بكرامتها وحقوقها فى عناد وكبرياء . وكان يمكنها أن تطلب الطلاق وتحصل عليه وتتزوج . إن لها عزوة كبيرة فى هذا البلد ، وهذا الرجل لا يستطيع حيالها شيئاً ، ولكنها لا تفعل شيئاً من ذلك ، لأنها أصيلة ولأن لها ابناً لا تريد له أن يتعرض للعواصف العائلية . كان ابنها آدم نور عينيها وأملها الجديد فى الحياة ، بعد أن خاب ظنها فى أبيه . . فى هذا كانت تشبه ملايين المصريات ممن يخيب الأزواج رجاءهن ، فيملأ الابن الوليد فراغ الحب الهائل الذى يخلفه الأزواج . .

وأحست هذه المرة بحزن عميق ، كأنما شعرت أن الخصومة هذه المرة أعمق من كل مرة مضت . . شعرت أنه فعلا لن يعود قريباً ، فقد ازدادت علاقاته برفقاء السوء ، وتعود الشراب فى الحانة ، ونشأت له مسرات أخرى خارج بيته . . وهناك أمه إلى جانب ذلك تشجعه على الاستمرار فى العناد والابتعاد عن زوجته . . أحزنها ذلك كله وملأ قلبها همّاً ، ولكنها كانت قوية ثابتة عالية الرأس كأنها سنديانة ضخمة ، فجففت دموعها ، ودخلت غرفتها فنظرت فى مرآة صغيرة هناك ، وأصلحت من هيئتها .. كانت ترتدى ثوباً بنيا داكن اللون يبدو من بعيد وكأنه أسود . كان ينسدل إلى قرب قدميها ، ولكنه كان حسن التفصيل ، يبدى قوامها الرقيق الحسن التكوين . وكان شعرها يسترسل على جانبي وجهها وتتدلى منه خصلات على جبينها الناصع البياض ، وفى مؤخرة رأسها شبكت طرحة سوداء تنساب على ظهرها وتزيد منظر وجهها نبلا وجمالا ، وكان هذا زيها دائماً أبداً . كان أبوها يقول إنه زى مصر ، وكان يحتفظ بصفحة من مجلة فيها رسم مشروع تمثال نهضة مصر الذى كان محمود مختار قد وضع نموذجه ومضى يبحث عن المال لتحقيقه . وكان صابر يقول : « بل هذا هو زى الست الطاهرة أم هاشم كما بدت له فى المنام ذات مرة ، وهو نائم قرب المقام . . »

وسمعت صوت ابنها آدم فى القاعة الوسطى ، فخرجت تجرى ، فوجدته يضحك ويجرى نحوها ، فحملته ونظرت إلى حيث أتى فإذا ريحان على الباب كأنه يريد أن يدخل ، فأشارت إليه وقالت :

« ريحان . . قف مكانك . . إياك أن تدخل . . سآتيك بالسكر . . »

فقال آدم : « إنه عطشان . . لم نجد صابراً ليضع له ماء . . »
فقالت تخاطب ريحان : « إذن اذهب إلى مكانك . . سآتيك بالماء . . اذهب وسيلحق بك آدم بعد قليل . . »

ولم يتحرك الحصان ، بل وقف يهز رأسه ، فأعادت عليه القول وسارت نحوه ، فاستدار واتجه إلى الموضع الذى يضعون له فيه طعامه وماءه أثناء النهار . كان ذلك عريشاً تظله شجرة جميز خلف الزريبة التى ينام فيها فى الليل . .

ومضت مصر تمسح وجه ابنها ويديه وهى تكرر ما قالته له قبل ذلك مئات المرات من الحذر من اتساخ ثوبه ويديه ووجهه ، كل ذلك والغلام يضحك ويتعجل أن تفرغ من تنظيفه ليسرع إلى صديقه ريحان . .

وبعد قليل أقبل صابر فأخذ الماء وسار خطوات والحصان خلفه ، فنادته مصر وقالت له : « أنت تعرف أن إسماعيل خرج غاضباً الآن ، لقد ذهب إلى بيت أمه ، وأخشى أن يفكر فى شىء بخصوص آدم ، أو يحاول شيئاً ضد أرضنا وزرعنا . . ربما يحاول أيضاً إيذاء ريحان لأنه لايحبه ، فنبه على رجالك بأن يشددوا الحراسة على كل شىء : مداخل أرضنا والطرق من حولنا ، وخذوا بالكم من المعدية ومن مكنة المياه ومخزن الحبوب وكل شىء . . لا نريد أن نفاجأ باعتداء علينا . »

ـــ إن سيدى إسماعيل رجل طيب ، وهو لا يمكن أن يفكر فى أذانا . .

ـــ إذا لم يفكر هو فى الأذى فكر فيه غيره . . أمه بالذات لن

تسكت عنى .. ستحاول على الأقل أخذ الولد، والولد لن يخرج من هنا، وأنت مسئول عنه . قل هذا كله لمسعد وشعبان وعبد الفتاح وغيرهم من الشبان الأشداء ليبدءوا الحراسة من الآن ، وسآمر بهم عندما أنتهى من أعمال البيت .

وسار صابر لينفذ أوامرها ، ولكنها نادته وقالت : « وخذ بالك من ريحان . . أنت تعرف كم أحبه ، خذوا بالكم منه جداً ، وحاذروا أن يمسه أحد بأذى . . »

ووقفت مكانها تتابعه فى سيره ، وسبح خيالها بعيداً . .

كانت تشعر أنها مسئولة عن هذا البيت وما فيه ، عن هذه القرية وكل من يسكنها ، عن هذا النهر الجارى غير بعيد ، عن الضفة التى يقوم عليها بيتها وأرضها وقريتها، والضفة الأخرى التى يقوم فيها قبر أبيها ويسكنها الصيادون . . كانت تشعر أنها مسئولة عن هذا البلد كله ، وأنها أم لهذا البلد كله . . ومدت يديها فجذبت أطراف ثوبها إلى جسدها كأنها طير يرفرف بجناحيه ثم يضمهما على أفراخه، وسارت نحو البيت رافعة الرأس حازمة الأسارير ، دون أن يقلل الحزم من ذلك الجمال الرفيع الذى أفرغه الله على وجهها الدقيق الوسيم وقوامها الأنيق المستقيم . .

* * *

غير بعيد من بيتها ، على الضفة الأخرى للترعة ، جلس زوجها إسماعيل مع أمه ، وأخته واثنين من أقاربه كان قد قص عليهم قصة خصومته الجديدة مع مصر ، وكيف ترك لها البيت ومضى مصمماً



هذه المرة على ألا يعود ، وكانت الأم تصغى وفى عينيها فرح وشماتة .
وسكت إسماعيل لحظة وأشعل سيجارة ، فقالت الأم : « وابننا آدم ؟ . . كيف نتركه لها ؟ . »

– سنأخذه طبعاً . .

– ولماذا لم تأت به معك ؟ . .

– قلت أتحدث معكم أولا . .

– لا بد أن تأتى به اليوم . .

وقالت أخته : « نذهب الآن ونأتى بآدم . . لن يبيت هناك ليلة واحدة . . »

فقال إسماعيل بعد لحظة صمت : « ولكنى لم أطلقها بعد . . »

فأسرعت الأم قائلة : « ولماذا لم تطلقها ؟ .. ماتزال متعلقاً بها برغم مافعلت بك ؟ . . أم أنت تخاف منها ؟ . . »

وظل صامتاً . .

مرت فى ذهنه صورة مصر أول ما تزوجها . . رأى نفسه أمام أبيها يرجوه أن يزوجه منها والرجل العجوز الأشيب يرفض . .

ولكن مصر أرادت ، ولم يستطع الشيخ أن يخالفها .. إنها وحيدته ، هى رمز الست الطاهرة فى بيته . .

هاهى ذى فى يوم زفافها . . وجهها المشرق الجميل . . شعرها الكستنائى الفاتح الذى يلتقى مع جبينها ، كأنه لقاء الليل مع النهار فى الفجر . .

عيناها الضاحكتان فى جمال الصبا وطهر العذارى . .

وشباب القرية كلهم عيون حاسدة وقلوب أحرقها الوجد . .

وهو من بينهم السعيد الفائز لأنها اختارته من دونهم . .

وعبس أبوها عندما تم عقد القران ، ودعا لها بالنجاة لأنه لم يكن يطمئن إليه . . .

فى طرفة عين ، عندما لمس هذا الشاب يد مصر أصبح كل شىء فى القرية بعد أن كان لا شىء . .

وابتسمت له الدنيا وعرف العيش فى بيت جميل يظلله الهناء . . ولكنه ليس أهلا للهناء . .

مضى يلعب ويعبث ، ويجتمع بأصحاب السوء على مائدة الشراب ، حتى أكلت مقاعد الحانة من ثيابه أكثر مما أكلت مقاعد بيته . .

وصبرت مصر واحتملت فى صمت . فى عمق عينيها غرقت الآلام . .

والآن . . . . ها هو ذا ، كما دخل الجنة يخرج منها بخطايا كثيرة لا بخطيئة واحدة . والخاطئة الكبرى أمه تجره خارج باب رضوان كأنها الحية التى أخرجت آدم من الجنة . .

وسمع صوتها تصرخ : « طلقها إن كنت رجلا . . »

وقبل أن يردّ اتجه نظره إلى الباب ، إذسمع وقع أقدام فى الدهليز. إنها أقدام عم عبد الرحيم الإسناوى . .

ودخل عم عبد الرحيم الإسناوى . . كان رجلا ضخماً يسير كأنه شيخ البلد خرج من المتحف إلى الطريق . رجل مهيب ، شديد السمرة ، واسع العينين ، جميل الملامح ، كثير الشعر ، عريض المنكبين . .

قال بدون أن يلقى تحية :

– لا يا أم إسماعيل . . لن يكون رجلا إذا طلقها . . الرجال لا يطلقون نساءهم إرضاء لغليل أمهاتهم . .

– يطلقها لأنها طردته من بيته . .

– هى لم تطرده . . هو خرج بنفسه . . كما خرج يستطيع أن يعود . .

فقال إسماعيل : « ولكننى لا أريد أن أعود . . »

– بل تريد أن تعود . . ولا بد أن تعود . .

– كيف ؟ . .

– لأنك تحبها ، وأنا أعرف ذلك . .

فقالت الأم : « كيف يحبها إذا كانت قد طردته من البيت ؟ .. »

فقال إسماعيل غاضباً : « إنها لم تطردنى . . أنا خرجت من نفسى . »

فقالت الأم : « وتريد أن تعود الآن ذليلا ؟ . . »

وقال عبد الرحيم الإسناوى : « لاتستمع إليها . . إنها حماة تكره زوجة ابنها . . »

* * *

وأشعل عبد الرحيم سيجارة ، ووضع عصاه إلى جواره وجلس ، فبدا وكأنه تل . . لا يعرف أحد متى خرج من أعماق الصعيد حيث ولد . . هو نفسه لا يتكلم ، لأن شيخ البلد لم يخرج عن صمته من أربعة آلاف سنة . .

فى عينيه حديث صامت رهيب مقبل من وراء الأبد . .

يقولون إنه خرج من قريته فى الخامسة عشرة من عمره . يقولون إنه قتل قاتل أبيه وهرب . سار على قدميه من إسنا إلى بور سعيد ، وهناك اختفى فى زحمة ألوف العمال فى الميناء وشركة القنال . خلال سنوات قليلة أصبح رئيس عمال وهو فى العشرين ، وأمسك بالعصا وحلق رأسه وأصبح شيخ البلد ، ثم تزوج ابنة أحد الصيادين فى بحيرة المنزلة . . بعد قليل أصبح كبير الصيادين . الزعيم زعيم منذ مولده . . ضرب رجلا مرة وحبسوه ستة أشهر ، فأصبح فى السجن زعيم المساجين .. كان صهره من أهل هذه القرية ، وكلما خرج من السجن أقبل معه إليها وحط رحاله فيها ، لأنها أعجبته ولأنه كان يحب زوجته . . أصبح من مريدى الشيخ إبراهيم ، ثم صار ذراعه اليمنى . قبل أن يموت الشيخ أوصاه بابنته مصر . قال له :

– لست فى حاجة إلى توصية ياسيدى الشيخ . . مصر ابنتى وأنا أبوها . .

وبالفعل صار أباها . برغم ذلك كان يقول: « ماوقفت أمامها إلا شعرت أننى ابنها . . »

وقالت الأم : « لا بد أن يسمع كلامى . . إننى أمه . . »

فقال فى هدوء: « اسكتى أنت ياوليه . . أنا أريد صالح ابنك فدعينا من أحقادك . . »

وقال إسماعيل : « يا عم عبد الرحيم أنا لن أعود إلى زوجتى . . »

فنهض الرجل وقال : « إذن نعود نحن . إنها لن تبقى وحدها أبداً . . »

وقام خارجاً ، ونهض فى أثره الرجلان اللذان كانا هناك . قبل أن يخرج قال : « لن يكون معك أحد . . ستقف وحدك وسط الطريق ، وسينقطع رزقك ، ويومها لن تستطيع هذه أن تطعمك . . »

وساد صمت . .

لم يبق إلا إسماعيل وأمه وأخته وصفير الريح فى الخارج . .

كان المساء يهبط ، وصمت كئيب يغرق المكان ، والشمس تجمع أطراف أشعتها الشاحبة وتمضى . .

ونهض إسماعيل وقال : « سأذهب إلى المقهى . »

وقالت الأم : « إياك أن تذهب إليها . . »

* * *

عندما دخل المقهى كانت الدنيا ليلا ، لم يجد أحداً . استقبله شريبة صاحب المقهى صامتا وقال له : « لا أحد هنا الليلة . . »

ــ والرجال ؟ . . أين ذهبوا ؟

ــ إلى مصر . . شيء خطير حدث عصر اليوم . .

ــ ماذا حدث ؟

ــ المهايرة وضعوا يدهم على أرض الشيخ إبراهيم وأنذروا الصيادين ليخرجوا منها . .

ــ وكيف حدث ذلك فجأة ؟ . . كنا هناك من أيام . .

ــ عزيزة هانم . . هل تذكرها ؟

ــ عزيزة ماهر . . طبعاً أعرفها . . إنها صاحبة الأرض . .

ــ لا . . ليست صاحبتها . . إنها تدعى ذلك . .

— هذا ما نقوله نحن ، ولكن هذه الأرض أرضها ، اشترتها من أخيها نور الدين ماهر بالمال الذى ورثته من زوجها الأول طلعت باشا سليمان . .

— يسمونه طلعت الحرامى . .

— حرامى أو غير حرامى . . لقد مات وترك ماله لزوجته ، وبهذا المال اشترت الأرض . . . ولكن ماذا تريد من الصيادين ؟ . . لماذا تريد أن تطردهم من أكواخهم هناك وتحرم عليهم الصيد عند الشاطئ ؟

— يقولون إنها تريد أن تبنى فنادق وتصلح المنطقة . .

— ألا يكفيها ما تملك فى رأس البر ؟ . .

— الأغنياء يريدون دائماً أن يكونوا أغنى ، وهى امرأة أشطر من الرجال . .

— إنها تعجبنى . . .

— ماذا يعجبك فيها ؟ . .

— أليست امرأة جميلة وغنية ؟ . .

— بالنسبة لأمثالنا هى ليست امرأة ولا جميلة . . إنها سيدتنا ونحن عبيدها ، لأننا فقراء وغير متعلمين . . الذين يحق لهم أن يروها كامرأة هم فقط الأغنياء مثلها . . .

— مثل طلعت باشا سليمان . .

— طلعت الحرامى . . .

— حرامى أو غير حرامى ، إنه يعجبنى . .

فقال شربية صاحب المقهى : « أنت تريد أن تكون منهم ،

ولكنك لن تكون . . أتعرف كيف ينظرون إليك ؟ . . »

ـ لا ، ولكنى أعرف كيف تنظر إلىّ هى . .

وابتسم لنفسه . . وهز صاحب الحانة رأسه وملأ له كوبا صغيراً من النبيذ فوضعه أمامه ، وقال له : « ألا تذهب للاجتماع بإخوانك ؟ . . »

ـ لا ، بل أنا ذاهب إلى مكان آخر . .

ـ لا تحطم نفسك أيها المسكين . .

ـ وماذا أفعل بحياتى ؟ مادمت فقيراً فحياتى هذه لا معنى لها . . دعنى أحطمها . .

وصمت لحظات ثم قال : « ولكنى لن أسمح لها بأن تحطمنى . . »

ـ من هى ؟ . .

ـ أنت تعرف من أريد . . الطاهرة . .

ـ أنت لن تستطيع أن تغلب الطاهرة أبداً . .

ـ أنا لن أستطيع . . ولكن عزيزة هانم تستطيع . .

ـ ولا عزيزة ولا آل عزيزة جميعاً . كل الناس فى البلد معها ، وهذه أرضها وهى لا بد أن تأخذ أرضها . .

ـ منذ متى هى أرضها ؟ . .

ـ أليست هذه كلها أرض الشيخ إبراهيم الصياد ؟ . .

ـ الشيخ إبراهيم الصياد ؟ . . كيف يستطيع شراء أرض واسعة كهذه ؟ . .

ـ الحكومة أعطته إياها . . وزير الأوقاف أعطاه إياها . . كلنا نعرف ذلك . . هذه كانت أرض الأوقاف والشيخ إبراهيم أراد أن يبنى

المسجد فيها والوزير أعطاه إياها . .

— هل معكم ورقة تثبت ذلك ؟ . .

— وصاحبتك عزيزة ، هل معها ما يؤيد دعواها ؟ . .

— لقد ورثت زوجها . . ثم إنها غنية وقوية ، ومثلها لا يحتاج إلى إثبات ملكية . .

— دعك من هذا الكلام الذى لا معنى له يا إسماعيل وقل لى : هل اشترى زوجها هذه الأ ض ؟

— هو كان محافظا ووزيراً . . وقد أتى ورأى الأرض وأراد أن ينشئ فيها فنادق ويشق طريقاً ، ووافقت الحكومة . . . ثم ورثت عزيزة ذلك كله ، ومؤكد أن لديها ما يثبت ذلك . .

— ليس لديه أو لديها شىء .. إنه اغتصاب . .

— اغتصاب .. نهب .. كما تريد .. المهم أن لديهم القوة على أن يحموا ما بيدهم . . . وأنتم ماذا بيدكم ؟ . .

— كأنك تستهين بنا وبقوتنا ؟

— أنا لا أستهين بأحد . . وإنما أنا أعرف أنهم وراءهم الحكومة ، وأنتم ماذا وراءكم ؟ . . وماذا يستطيع الصيادون أمام عزيزة ماهر وآل ماهر ومن وراءهم الحكومة ؟ . .

— إذا كنا رجالاً فسنحمى أرضنا . .

— ولكن قل لى ياشربية : هؤلاء الناس كلهم يكرهونك ويسمونك الخمورجى ، فلماذا تتحمس لهم الآن ؟ . .

— هذا حق ، ولكنهم أهلى وعشيرتى . . وإذا لم أكن منهم فمن

أكون ؟ وما داموا الآن فى خطر فلا بد أن أقف معهم . .

فشرب إسماعيل شيئاً من الكوب ، وأرسل نظره فى الظلام خارج المقهى ، ولمعت عيناه ببريق غريب . . وتحسس ذقنه فلم تعجبه خشونته ، ونظر إلى ثيابه فلم يرض عنها .. ثم نظر إلى الرجل وقال : « وعزيزة هانم.. هل هى هنا ؟ . . » .

– يقولون إنها وصلت من أيام ومعها رجال ومهندسون وبوليس . . إنها تريد أن تشرع فى العمل . يقولون إن معها رجالا أغنياء كثيرين ، يريدون أن ينشئوا شركة كبيرة . . وسمعت أن زوجها الثانى منهم . .

– ولكنها طلقت زوجها الثانى هذا . . .

– هؤلاء الناس أمرهم عجيب . . طلقها لأنه لم يستطع أن يعيش معها ، ولكنهما اتفقا على أن يعملا معاً فى تنمية ثروتهما . . هؤلاء الناس نادراً ما يجمعهم الحب ، ولكن دائماً يجمعهم المال . هذا هو العصب الذى يجمع بينهم ، ويجعل منهم قوة خطيرة . .

– معنى هذا أنكم لن تستطيعوا شيئاً حيالهم . .

– لماذا تقول « أنتم » ؟ . . ألست منا ؟ . . ألست من أهل هذا البلد ؟ . .

– طبعاً أنا منكم ، ولكنى لست مجنوناً حتى أقف أمام الدنيا كلها . .

– ولكن هذا حقنا . . أقصد أن هذه الأرض أرضنا . .

– لا يعرف أحد أين يكون الحق . .

– هناك مقام الشيخ إبراهيم شاهد على ذلك . .

– وهل مقام الشيخ إبراهيم سيقاوم هؤلاء جميعاً ؟ . . سيزيلونه فى نصف ساعة ، ويومها لن تجد أحداً يذكر أنه كان هناك قبر لشيخ اسمه إبراهيم . .

– والمسجد ؟ . .

– يبنون أعظم منه . .

ثم نهض واقفاً واتجه نحو الباب ، فناداه الرجل وقال : « إسماعيل.. إننى أخوك ، وأنت تعرف ذلك . . »

– ماذا تريد أن تقول ؟ . .

– لا تنفصل عن إخوانك . . .

– إننى سأنقذهم من الدمار الذى تريده لهم بنت الشيخ إبراهيم . .

– أنت لن تنقذ أحداً ، ولكنك ستحطم نفسك . .

– إننى أعرف عزيزة هانم . . وهى تعرفنى . .

– أنت تعرفها كسيدتك ، وهى تعرفك كراكبى مسكين . . يجذف أو يسوق لها اللنش وهى تتسلى بالنظر إلى الماء . .

– هذا ما تظنه أنت . .

– لا تحطم نفسك . .

فابتسم وقال وهو يخرج : « فى هذا الطريق . . لن أتحطم أبداً . . »

* * *

الفجر يرسل أشعته الأولى ، والصمت يشمل الكون . . على الضفة الأخرى يرتفع صوت صابر يؤذن الفجر . لم يرض أن يترك شيخ المسجد وحده عندما سمع بالمرأة والمهندسين والرجال والبوليس . . خاف أن

يعتدوا على المسجد وضريح الشيخ ، فعبر بقاربه فى ظلام الليل ودخل الجامع وبات عند الشيخ سعد . . فى الفجر استأذنه وقام بالأذان بدله .

بعد الأذان صلى الفجر مع الشيخ سعد . لم يكن هناك غيرهما . .

بعد أن سلما نظر صابر إلى الشيخ سعد وقال : « هل هذا يرضى الله ؟ الصيادون أهل هذه الأرض الطاهرة وأصحاب المسجد يطردون من هنا ، ويظل بيت الله خالياً كأنه منفى فى أرض الشيطان ؟ . . »

وقال شيخ الجامع : « سمعتهم يقولون إنهم سيهدمون الجامع والضريح . . »

– متى ؟ . .

– ربما خلال أشهر . .

– هل أنت متأكد ؟ . .

– سمعتهم يقولون ذلك . . إنهم كل يوم هنا ، يقيسون ويرسمون ويتناقشون . .

– طمئنى . خفت أن يهدموا المسجد اليوم أو غدا . .

– هذا مسجد ولى الله ، ولن يستطيعوا هدمه لا اليوم ولا غدا .

– ومن يمنعهم ؟

– الوزارة . .

– الوزارة والدنيا كلها معهم . . يستطيعون هدم المسجد ويقولون للوزارة إنهم سيبنون مسجداً جديداً . . إنهم أقوياء وأغنياء . .

– وكذابون أيضاً . .

– ولهذا فأنا أخاف منهم . . إننى أخاف من الكذابين . . لا أدرى

ماذا أفعل إذا هدموا المسجد . .

ــ أنت معنا . . . مع الشيخ إبراهيم ومع مصر . .

ــ وماذا نستطيع حيال القوة ؟ . .

ــ نستطيع إذا كنا رجالا . . الرجال لا يغلبهم أحد . .

ــ يغلبهم البارود والنار . . .

ــ ولماذا لا يكون معنا بارود ونار ؟

ــ إذن سنحارب الدنيا كلها . .

ــ إذا كنا على حق فلابد أن نحارب الدنيا كلها فى سبيل حقنا . .

ــ ولماذا لا تتفاهمون معهم ؟ .. إنهم مستعدون أن يعطوكم شيئاً إذا طلبتم ذلك . . .

ــ لا بد أن نركع أمامهم على ركبنا أولا . . ثم إنهم لن يعطونا شيئاً بعد ذلك . .

ــ لماذا لا نجرب ؟

ــ لأننا واثقون من أن القوى لا يعطى الضعيف شيئاً أبداً . . القوى دائماً يأخذ من الضعيف . .

ــ أى أننا ضعفاء فلا بد أن نعطى . . .

ــ هذه قاعدة من قواعد الحياة على وجه الأرض . .

ــ وما العمل ؟

ــ لا بد أن نكون أقوياء . .

ــ ليس معنا سلاح ولا بارود . .

ــ إذا أردنا السلاح وجدنا السلاح ، وإذا كنا مستعدين

للموت فسنجد البارود . .

– لم أسمعك تتكلم بهذا الكلام أبداً يا صابر ، ماذا جرى لك ؟ . .

– فتحت عيني على الحقيقة عندما سمعت مصر تقول إنها ستقاتل..

– متى قالت ذلك ؟ . .

– أمس ، عندما وصل إليها الصيادون وشكوا إليها ما فعلوه بهم . .

– وكيف ستقاتل هى ؟ . .

– ستقاتل بنا . . مصر دائماً تقاتل برجالها . .

– أرجو ألا تخذلوها . . .

– وأنت ، ماذا ستعمل ؟ . .

– أنا إمام جامع . . ولكنى واحد منكم . . إذا قررتم القتال فسأقاتل معكم . .

– لن تتخلى لهم عن هذا المسجد ؟ . .

– وحدى لن أستطيع شيئاً . .

– لن تكون وحدك .. لن يكون واحد منا وحده.. سنقف معا ..

– ومن أين السلاح . . ؟

– أنا عندى سلاح لك . .

– أنت ؟ من أين ؟ . .

– أعطانى إياه الشيخ إبراهيم . .

– والشيخ إبراهيم ، كيف حصل على السلاح ؟ . .

– فى المظاهرة التى قتل فيها حمزة ابن صديقه عم عبد المطلب وقع من الإنجليز سلاح كثير . أخفاه الطلبة عند عم عبد المطلب ،

وعبد المطلب أعطى الشيخ إبراهيم منه ثلاث بندقيات ، والشيخ إبراهيم كان يقول : «ما دام الإنجليز عندهم سلاح فهم لن يخرجوا من بلادنا إلا إذا صار عندنا سلاح مثله . . »

ــ وماذا تنفع ثلاث بندقيات ؟ . .

ــ كان يقول : « كل مؤمن يدبر سلاحه بنفسه . هذا هو حكم الشرع ، لأن كل مؤمن مجاهد » . . وكان يقول : « أنا دبرت سلاحى وسلاح ابنتى وسلاح صابر ، وعندما يجىء وقت المعركة سيخرج كل منا بسلاحه ، وعلى الآخرين أن يدبروا سلاحهم » .. هكذا كان يقول . .

ــ وهل تعرف كيف تستخدم السلاح ؟ . .

ــ الشيخ إبراهيم تعلم استعمال السلاح من طالب طب كان زميل الشهيد حمزة ، وهو علمنى وعلم الست الطاهرة . .

ــ وعندكم بارود ؟ . .

ــ ما يكفى ليوم . .

ــ أين هذا السلاح ؟ . .

ــ أنا عندى سلاحى ، والست عندها سلاحها ، وسلاح الشيخ إبراهيم هنا . .

ــ إنه لى . . .

ــ إذا كنت مستعداً للحرب أعطيتك إياه .

ــ أنا مستعد . .

ــ لا . . لست مستعداً . . !

ــ من أين تعرف ذلك ؟ . .

ـ لأنك غير مستعد للموت بعد . عندما تكون مستعداً للموت قل لى . .

ـ قلت لك إننى مستعد . . أنا تلميذ الشيخ إبراهيم وإمام مسجده . .

ـ هل ستحارب فى سبيل مسجدك هذا ؟ . .

ـ كما قلت لك . . إذا سرتم كلكم للحرب سرت معكم . .

ـ إذن فأنت لست مستعداً بعد . .

ـ لا أفهم ! . . .

ـ المقاتل لا ينتظر الآخرين.. إنه يأخذ سلاحه ويسير نحو العدو ؛ كان الشيخ إبراهيم يقول إن الصحابة لم يكونوا ينتظرون بعضهم بعضاً . كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم للحرب ويعين لهم مكان الاجتماع وموعده . . عندما يحين الموعد يخرج من حضر ولو كان واحداً ، لأن الرجل منهم بألف . .

ـ سمعت منه هذا الكلام . .

ـ ولكنك لم تحفره فى صدرك . . السمع لا يكفى . .

ـ الآن هو محفور فى قلبى ، وهذه الظالمة لن تهدم مسجد الشيخ إبراهيم . . لا بد أن تقتلنى أولا . .

ـ هكذا يكون الكلام . . الآن سأعطيك بندقية الشيخ إبراهيم والبارود اللازم لها . .

ـ وتعلمنى ؟ . .

ـ طبعاً . .

ـ الليلة القادمة . سأجيئك عند منتصف الليل . نتقابل عند

الدوامات . اجلس على الشاطئ وأنا آتيك . .

ـ الدوامات بعيدة . .

ـ نريد أن يسمعوا طلقات النار ونحن نتدرب . .

ـ فحلا . . سأكون فى انتظارك . .

ـ عليك أن تفتح عينيك وتراقب كل شىء . . عندما آتيك تقول لى كل ما يصل إليك من الأخبار . . مصر تريد ذلك . . أنت رجلنا على أرضنا التى يحتلها العدو . .

ـ لاتخف . .

ـ المهم ألا تخاف أنت . الخوف هو عدونا . .

ـ سأتغلب على الخوف . .

ـ أتدرى ماهى أحسن طريقة للتغلب على الخوف ؟ . .

ـ طريقة الصحابة . .

ـ نعم ، كانوا يقولون : اطلب الموت توهب لك الحياة . . لكى تتخطى الموت ينبغى أن تفترض أنه وراءك . . إذا كان الموت وراءك فلا يبقى أمامك إلا الحياة . .

ـ أنا الآن لا أريد الحياة . . أريد الموت . . موت الشهداء . .

ـ أرسل أولادك وامرأتك إلى الست غدا . .

ـ أرسلتهم إلى بيت أبيها أول أمس . . عندما رأيت نذر الخطر . .

ـ إذن فأنت جندى . .

ـ أنا ابن مصر ، وفى سبيلها سأفعل كل شىء . .

ـ لن يمسوا هذا الجامع ، وسنعبر إليهم ونطردهم . .

ـ هذه أرض مصر . . ومصر لا بد أن تأخذ أرضها . .

ـ إلى الغد . . الله والرسول والصحابة معك . .

* * *

بعد الظهر بقليل . انتهت الصلاة فى جامع القرية ، ولكن عبد الرحيم الإسناوى بقى فى مكانه بعد التسليم . نهض وسار إلى ركن فى طرف الجامع وجلس . بعد قليل أقبل نحوه رجلان فى زى الصيادين وجلسا صامتين . .

فى صمت الجامع الخالى قرأ قارئ دون ترتيل كثير (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون. وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .

قال عبد الرحيم : « صدق الله العظيم . . »

وقال القارئ : «صدق الله العظيم . .»

ونهض وسار نحو ثلاثتهم فى ركن الصحن وجلس ثم قال: « أنا ذاهب الآن للتدريب . . »

ـ كم رجلا معك ؟ . .

ـ سأدرب عشرين اليوم، وعشرين صباح غد . .

ـ فى المكان نفسه ؟ . .

ـ نعم ، خلف حقول الأرز فى الطريق إلى فارسكور . .

ـ لا بد أن تغير المكان . .

ـ هل عرفوه ؟

ـ لا ، ولكنهم سيعرفونه ، ما كان ينبغى أن تقوله . لا يمكن حفظ سر يعرفه أربعة . .

ـ ولكنهم رجالنا . .

ـ السر إذا جاوز اثنين ذاع . وهذا سرك أنت لا سرنا نحن . . كل منا يحافظ على سره وحده.. إنها حرب ..

ـ فهمت . .

ـ الآن تتركنا وتعود إلى قراءتك. لن أراك إلا فيما بعد كما تعرف..

ـ لا بد أن أعيد الوضوء . .

ـ هذا شأنك . . .

ونهض القارئ واتجه نحو الميضأة ، وقال أحد الصيادين : « أليس هذا صلاح ابن الحاج حسنين الفوال ؟ »

ـ ليس هذا شغلك . .

ـ كنت أعرف أنه طالب فى الهندسة . متى دخل الأزهر ؟ . . .

ـ ليس هذا شغلك . .

ـ أردت فقط أن أعرف . .

ـ ومن أين تعرف الحاج حسنين الفوال ؟

ـ ابنى يعمل عنده فى مصنع الأثاث ، وهو واحد من شبابنا الذى يتدرب . .

ـ إذن لا أخفى عنك أنه هو ، والآن أنت مسئول عن هذا السر . .

ـ فى بئر . .

– (للصياد الآخر) وأنت أيضاً . .

– على عهد الشيخ إبراهيم . .

– كل واحد منا مسئول وحده أمام الله . .

– اطمئن . . نحن رجال . .

– هذا عشمي . . أتعرفان واجبكما ؟ .

– نعم . . سنعود الآن إلى الضفة الأخرى . . ونلزم الصمت . . .

– حتى تصلكم تعليماتى . .

– مع صابر ؟ . .

– لا أعرف الآن . . ستعرف رسولى إليك ، والعلامة بيننا ستعرفها الآن . . المهم أن تستعدوا كلكم وألا يظهر عليكم شىء . .

– نحن نعرف ذلك . .

– استمروا فى الصيد فى المنطقة التى حرموها عليكم . . إذا منعوكم فلا تقاوموا . . انتقلوا إلى المنطقة البحرية . .

– ومساكننا ؟ . .

– لن يجرؤوا على المساس بها . . سينذرونكم أولا . .

– وإذا أنذرونا ؟ . .

– اتركوها وانتقلوا إلى المنطقة البحرية . . هذا سيكون مكان أسراتكم عندما تقوم المعركة . .

– وأولادنا وأهلنا ؟ . .

– ترسلونهم من الآن إلى هناك . ستجدون هناك رجالا يعاونونكم فى البناء . .

فقال الصياد الثانى :

– لن أستطيع أن أنقل أسرتى . . امرأتى لن تسلم بيتها . . تقول إنها ستحاربهم . .

– دعها تحاربهم . .

– ياعم عبد الرحيم . . إنها أم أربعة . .

– دعها تحاربهم مادامت تريد . .

– وإذا قتلوها ؟ . .

– سيصبح أولادها رجالاً . . مصر تريد رجالاً . . لاينفعها أولاد يظلون طول عمرهم أطفالا يرضعون . .

– أحياناً أنا لا أفهم مصر . .

– ليس المهم أن تفهمها .. المهم أن تؤمن بها . .

– أنا أومن بها . . إنها الست الطاهرة . .

– زكى شنوده صاحب صلاح الدين الفوال يقول إنها ستنا مريم . .

– هى ستنا مريم أيضاً ... كان الشيخ إبراهيم يريد أن يسميها مريم، ولكن السيد البدوى أمره بأن يسميها الست الطاهرة . .

– ومن الذى سماها مصر ؟ . .

– الشهيد حمزة . . عندما استشهد فى المظاهرات بكاه الشيخ إبراهيم وهتف هاتف فى قلبه : «سمها مصر . . »

– مصر . . الست الطاهرة . . ستنا مريم . . الكل سواء . . . وأرضها لا تتجزأ . . من أسوان إلى الإسكندرية . . .

فقال عبد الرحيم :

– لا . . من منبع النيل إلى الإسكندرية . . هكذا كان الشيخ إبراهيم يقول : « إنها كلها أرض النيل . . كلها أرض مباركة ، لأن النيل ينبع من الجنة . . »

– شيء لله ياست ياطاهرة . . شيء لله ياستنا مريم . . .

وقال عبد الرحيم : « الآن يعرف كل منكم عمله . . . »

– طبعاً . . . ولكن نريد أن نسلم على الست قبل أن نعود . .

– لا تتأخروا . . تكونون هناك عند صلاة العصر . .

وتردد صوت القارئ : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

وقال عبد الرحيم : « صدق الله العظيم . . تلك هى العلامة . . »

– فهمنا . . .

– على بركة الله . .

* * *

بعد النور يكون الظلام ، ومن النهار يخرج الليل . . .

الشمس تهبط عند الأفق الغربى شيئاً فشيئاً ، وتبدو وكأنها تغوص فى ماء النيل ، حتى لا يبقى منها إلا حاجب متوهج أحمر فى لون الدم ، ويسيل هذا الدم وينتشر فوق صفحة الماء . . ويختفى حاجب الشمس ، مخلفاً فى السماء وهجاً أحمر برتقاليا يكتنفه إطار بنفسجى . .

وسط هذا الإطار الساحر من النور يتراءى البيت الصغير ، بيت الست الطاهرة فى هيئته الجميلة ، وتهب أنسام المغيب فتداعب الزهر

الصاعد على جانبي المدخل . . عصافير الجنة ، تلك العصافير الصغيرة ، تدور فى السماء فى رقصة وداع للنهار ، وكلما تضاءل النور هبطت فى دورانها وهى تزقزق فى شبه نشيد حزين . . إن شمس اليوم تموت ، وهذه العصافير تبكيها كما فعلت ملايين المرات منذ كانت الشمس ومنذ كانت العصافير . .

وانفتح باب البيت ، وظهرت على الباب الست الطاهرة بوجهها الوسيم وملامحها النبيلة ، ونزلت الدرجات الثلاث ، واتجهت إلى اليمين فوقع على شعرها ضوء الغسق ، وتراءت حمرته فى وجهها الأسمر الرقيق ، ونظرت يميناً ويساراً ، ونادت : « حليمة ! . . »

وأقبلت حليمة ، رفيقتها وربية آدم ، فسألتها فى لهفة الأم : «آدم . . أين آدم ؟ . . »

— هاهو ذا . . على ظهر ريحان . .

ونظرت إلى حيث أشارت ، فرأت ابنها فى طرف الحقل على ظهر الحصان الجميل ، فقالت وقد اشتد فزعها : « وحده مع ريحان فى هذه الساعة ؟ . . »

— لا . . معهما عبد الرحيم . . هاهو ذا مسنداً ظهره إلى شجرة الجميز .

وقرّ قلبها فى مكانه عندما وقع بصرها على عبد الرحيم . .

كان الرجل مسنداً ظهره إلى الشجرة ، وعصاه فى يده وعيناه على آدم وهو يجرى بالحصان . .

وقالت الست الطاهرة : « حقاً إن نعمة الله الكبرى رجل تطمئن إليه القلوب . . »

ــ ولكن . . أين مثل عبد الرحيم ؟ . .

ــ كلما نظرت إليه أحسست وكأنه يجر الصعيد كله إلى الدلتا . . يقولون إن الدنيا يحملها ثور . . ومصر دون شك يحملها صعيدى . .

ــ من يسمعك تقولين ذلك لا يظن أنكَ بحراوية . .

ــ أنا لا بحراوية ولا صعيدية . .

ــ أنت وجه قبلى ووجه بحرى . . لا أدرى : عيناك من هنا ووجهك من هناك . .

ــ أمى كانت من الصعيد . . من ديروط . .

ــ يقولون إنها كانت أجمل صعيدية فى عصرها . .

ــ كان أبى يقول ذلك . . كان ينظر إلى وجهها ويقول : « حقـاً إن نعمة الله الكبرى على الرجل امرأة صالحة ذات وجه وسيم . . »

ومدت بصرها إلى حيث ابنها . . كان ريحان يدور به معتزاً .. وكان صوت عبد الرحيم يتردد : « على مهلك ياريحان . . آدم صبى صغير . . . على مهلك . . على مهلك . . »

وقالت الست الطاهرة : « هل عاد الرجال إلى الضفة الأخرى ؟ »

ــ معظمهم . . عبد الرحيم استبقى منهم نفراً . . إنهم منتشرون حول البيت . .

ــ لانريد أن نحرم أهلهم منهم . . .

ــ سيذهبون من الغد . .

ــ ومن أين عرفت ذلك ؟ . .

ــ زوجى سيذهب معهم . . هناك ينتظرهم صلاح ابن الحاج حسنين الفوال . .

ــ لا تذكرى اسمه لأحد . . إنه طالب هندسة ولا نريد أن نعرضه للخطر . . ربنا يحرسه هو وأصحابه مصطفى بدر وزكى شنوده وإخوانهم . .

ــ كيف أتوا قبل الامتحانات ؟

ــ دائماً يعودون إلى أهلهم قبل الامتحان بشهر ليذاكروا . .

ــ ولكنهم لا يذاكرون الآن . . إنهم مع الصيادين طول الوقت . .

ــ إنهم يدربونهم . . هذا أيضاً استعداد للامتحان . .

ــ كنت أرى أولادنا دائماً يستعدون للامتحان بالمذاكرة . .

ــ هذا هو الاستعداد للامتحان الأصغر . . الآن هم يستعدون للامتحان الأكبر . . يعدون مستقبل بلادهم لا مجرد مستقبلهم . .

ــ كنت أظن أنه خير لكل منهم أن يذاكر دروسه ليعد مستقبله . .

ــ مستقبل الوطن كله أهم . . وما الفائدة فى أن يهتم كل منا بمستقبله ومستقبل أولاده فى حين لا أحد يهتم بمستقبل الوطن كله ؟ . . ليس لأحد منا مستقبل ما لم يكن مستقبل مصر آمناً . . وما معنى أن يصبحوا مهندسين أو أطباء إذا لم يكن لهم وطن عزيز يمارسون فيه عملهم كمهندسين أو أطباء ؟ . . بدون هذا يصبحون جميعاً لاجئين ، واللاجئ لاجئ سواء كان طبيباً أو ممرضاً . . إنه لاجئ مشرد لا وطن له ؛ انظرى إلى أولئك الصيادين . . إذا لم نقف كلنا معهم الآن أصبحوا

لاجئين عندنا . . أصبحوا لاجئين يلتمسون العيش من فضل الآخرين . . إذا لم نبادر نحن إلى عونهم أصبحنا عن قريب مثلهم..لأن العدو إذا أحس منا ضعفاً فلن يسكت حتى يقضي علينا تماماً . . .

ــ أحياناً أشعر أنك لست امرأة ! . .

ــ إنني مشكلة بالنسبة لنفسى . . أحياناً أشعر أن سنى ٢٠ سنة ، وأحياناً ٢٠ ألف سنة . . أحياناً أشعر أننى كل نساء هذا الوادى وكل رجاله أيضاً . .

وساد الصمت ، الست الطاهرة تلقى نظرة أخيرة على الأفق . الآن هبط الليل وعم الظلام ، ومن بعيد تراءت مصابيح . من بعيد أيضاً يقبل ريحان وعلى ظهره آدم ، فتسرع نحوه أمه وتحمله وتضعه على الأرض ، وتزيح شعره عن جبينه وهو يقول : « لقد قفزت الحاجز الصغير اليوم . . غداً أقفز الكبير . . »

ثم يقبل عبد الرحيم بخطوات وئيدة بعض الشيء ، ولكنه نشيط منفرج الأسارير ، وتقول له الست الطاهرة : « حقاً ؟ هل قفز اليوم حاجزاً ؟ . . »

ــ نعم ، الحاجز الصغير . . ومن أيام قفز فوق الترعة . . وغداً يقفز الحاجز الكبير . .

ــ ولكنه مازال صغيراً ياعبد الرحيم . .

ــ ينبغى أن يكون رجلاً من الآن . .

ــ فى العاشرة ؟ . .

– فى بلدنا يصبح الأولاد رجالا عند الفطام ، ونحن نعاملهم على أنهم رجال . .

وهنا يقول الصبي : « أمى . . يقولون إن ريحان جاء إلى جدى إبراهيم من السماء . . . »

– كيف من السماء ؟ . .

– هبط بجناحين . .

– وأين الجناحان ؟ . .

– عنده . . خلعهما وحفظهما فى بيته ، وسيطير بهما عندما يريد . . أنا أيضاً أريد جناحين . .

– لماذا ؟

– لكى أطير معه . .

– ولكن الإنسان يطير بدون أجنحة . . ألم تر الطائرة فى السماء ؟ . .

ثم طلبت إلى حليمة أن تأخذه لتغير ملابسه وتغسله وتعده للنوم . فى أثناء الحديث كان ريحان قد سار من تلقاء نفسه نحو مهجعه ، وتنظر مصر إلى عبد الرحيم وتقول له : « يبدو أنك متعب . . »

– إننى لا أشعر بنفسى . . عندما ينتهى ذلك كله فقد أعرف أمتعب أنا أم غير متعب . . ولكنى فى حاجة إلى فنجان قهوة . .

– تعال نشرب القهوة ونتكلم قليلا . .

– لدىّ كثير أقوله لك . .

– كنت أعرف ذلك ، ولكنى كنت أنتظر حتى يذهب الجميع . .

– كلهم ذهبوا الآن . .

– والصيادون ؟ . .

– ذهبوا جميعاً إلا عدداً قليلا منهم أصروا على أن يظلوا هنا لحمايتك . .

وأبرق وجهها بالبشر وقالت : « يحموننى أنا ؟ . . مَن يحمى مَن ؟ كنت أظن أننى أنا أحميهم كلهم . . »

وسارا معاً فدخلا البيت ، وذهبت نحو المصباح الغازى فرفعت شعلته قليلا ، ثم نادت حليمة ، فأقبلت ، وسألتها عن آدم فأكدت لها أنه يغتسل ، وأنه بعد ذلك سيتعشى وينام . . فرجتها أن تفتح عينيها وتنام معه فى الغرفة حتى تأتى هى . كانت حليمة مرضعة آدم ومربيته. امرأة مليئة بيضاء البشرة زرقاء العينين من عزبة البرج ، تلبس ثوباً أسود وتغطى رأسها بوشاح أسود . إنها شابة ولكنها لا تتزين ولا تميل إلى شىء من زينة الشباب . رجتها مصر أن تتركها مع عبد الرحيم وأن تتفرغ لآدم . عندما استدارت وذهبت قالت مصر لعبد الرحيم : « العواجيز يتمسكن بالشباب ، وهذه الشابة لا تريده . . »

– تقول إنها تتشبه بك . .

– ولكنى لم أقل إننى لست شابة . .

– لاأدرى ، أنت أصغر الجميع . . وأنت أم الجميع . .

– ولكنها هى . . مالها ومالى ؟ . . تصور أنها تعمل بيديها أجمل مناديل الرأس ولا تلبس مرة واحدة منديلا . .

– ربما هى لا تحب هذه المناديل . . أنا أيضاً لا أحب الأوية . .

– لاأدرى ، ولكننى أنا أيضاً لا أرتاح لها . .

– إنهم يكسبون منها كثيراً . .

– حليمة تكسب من المناديل أكثر مما يكسب زوجها من صيد السمك . .

– وأين زوجها الآن ؟ . .

– سمعتها تقول إنه هنا . .

– إنه واحد من أولئك الذين يصرون على حراستك . .

– وماذا يخشون عليّ ؟

– يخشون عليك منها . .

– تقصد عزيزة ماهر ؟ . .

– هى بالذات . . .

– ولكنى لا أخشاها . . .

– لوكنت منك لخشيتها . .

– وماذا يخيفنى منها ؟

– إنها امرأة شريرة . . إنها سبب ذلك كله . .

– أؤكد لك أنها مدفوعة إلى ذلك . . . أهلها من ورائها . .

– لماذا تدافعين عنها ؟

– لأنها امرأة مثلى . . مسكينة مثل كل النساء هنا . .

– ولكن هذه ليست مسكينة . .

– لاتصدق أن هنا امرأة ليست مسكينة . . هذه البلاد يأكل الرجال خيرها كله . . هذه بلاد آدم ، وعلى حواء أنتبحث لنفسها عن مكان آخر . .

فضحك وقال : « يعجبني أن تتحدثي أحياناً بلسان حواء . . »
– وماذا أكون أنا ؟ . .
– أنت أم آدم . . . أما ستنا حواء فزوجته . .
– تزوجها ثم تبنته . . هذه مأساة حواء . .
– أظن أنه فى ظروفنا الآن لا فرق بين آدم وحواء . . معاً يعيشان المأساة . .

وبينما كانت تحدثه ، كانت تعمل القهوة على منضدة صغيرة عند الحائط . عملتها على موقد سبرتو صغير ، ثم حملتها وسارت بها نحو كنبة إلى اليسار ، فنهض مسرعاً وهو يقول : « أستغفر الله ! » وحاول أن يأخذ منها الصينية الصغيرة فرفضت وقالت : « لعم عبد الرحيم لا بد أن أحمل القهوة بنفسي . . لا أكون مصر إذا لم أخدم الصعيد . . »

ونظر إليها فى صمت . وضعت الصينية على وسادة فى وسط الكنبة ثم جلست ، وتناول الرجل فنجانه فرشف منه شيئاً ثم قال : « بعد قليل يكون كل شيء مستعداً . . »
– أنت تعرف خطورة هذه المعركة . .
– نعم . . . ولا بد منها . . لهذا نحن نستعد لها جيداً . .
– هل طردوا الرجال من بيوتهم ؟
– ليس بعد . . أظن أنهم سينتظرون حتى ينتهى موسم الصيف . إنهم بحاجة إلى هؤلاء الرجال لأعمال المصيف ونقل المصيفين إلى رأس البر . شعوري أنهم سيطردونهم عندما ينتهى المصيف . . ربما بعد موسم للسمان كذلك . .

ــ يريدون أن يستغلوا الرجال إلى آخر لحظة، ثم يطردوهم بعد ذلك ..
ــ ولكنى لن أدخل المعركة معهم إلا إذا تدرب الرجال تماماً . .
ــ ولو اعتدوا علينا ؟ . أقصد لو طردوا الرجال قبل ذلك ؟ . .
ــ هنا سيجدوننا مستعدين . . عملنا ترتيباً لكل شيء . .
ــ المهم أن نضمن النصر . . إنها معركة وليست لعباً . .
ــ لهذا فأنا أحسب حسابي جيداً . . ومهما حدث فإن النصر لنا . .
ــ لأننا على حق . .
ــ بل لأننا نحمى الحق بالقوة . . لا حق بلا قوة . .
ــ هل أعددت للرجال كل ما هم بحاجة إليه فى مكان التدريب؟ . .
ــ نعم ، ونحن ننشئ لهم من الآن أكواخاً . .
ــ عند الدوامات ؟ . .
ــ نعم فى مكان إلى جوارها . . المهم أن نكون خارج منطقة نفوذ آل ماهر وأصحابهم . .
ــ والرجال ، كيف حالهم ؟ . .
ــ إنهم سعداء ويعملون بنشاط . . ونحن كلنا تحت رايتك . .
ــ لا أريد أن أكون مجرد راية . . أريد أن أكون العلم وحامل العلم ..
ــ أنت تقررين ذلك . .
ــ آه . . . فيم كنت تريدنى . . ؟
ــ نحن فى حاجة إلى شيء من النقود . .
ــ عندك مصاغى ...
ــ أعرف ذلك ، ولكنى أردت أن أستأذنك . .

ــ لا داعى للإذن . . هذا مالنا كلنا . . فى وقت كهذا يصبح المال كله للبلد . .

ــ هذا ما تقوله نساء الصيادين .. إنهن يردن أن يقدمن مصاغهن. . فقالت فى شىء من غضب : « لا تأخذوا منهن شيئاً . . يكفى أن رجالهن وأولادهن فى المعركة . . »

ــ ولكنهن يصررن على ذلك . . يقلن إنها معركتهن أيضاً . . هذه بيوتهن وتلك أرضهن . .

ــ نعم هذه بيوتهن وتلك أرضهن . . ولكن الدفاع عنها عمل الرجال . .

ــ ولكنهن يقلن : لماذا أنت فى المقدمة ؟ . .

ــ أنا أحارب برجالى، وينبغى أن يسمعن ما أقول . .

ــ لافائدة . . إنهن لن يسمعن ، ومن رأيى أن نتركهن ، فنحن فى حاجة إلى كل قلب جرىء مخلص ، وفى المعركة التى نحن فيها لا رجال ولا نساء . . إن بعضهن هنا فى الأكواخ الصغيرة خلف الجامع . . إنهن هنا فربما نحتاجين إليهن . .وربما احتاج إليهن الرجال . .

ــ عجباً ، كل هؤلاء الناس هنا ولا أسمع صوتاً ؟ . .

ــ لاأدرى . . هناك لحظات يستيقظ فيها الناس ويملأ قلوبهم العزم والتصميم . .

ــ ولهذا فهم صامتون . .

ــ طبعاً ، لأن الذى يعمل لا يتكلم . . والذى يتكلم لا يعمل . .

ــ كم أحب الإنسان الصامت . . الرجل الذى يعمل فى هدوء وصمت ، لا يصرخ ولا ينادى ولا يتحرك فى عصبية ولا يقفز هنا



وهناك كالقردة . . أؤكد لك أننا نستطيع أن نكسب المعركة بالصمت والهدوء والعزيمة . . إنها أسلحة ماضية . .

ـ تعرفين ياست ؟ . . واحد من أولئك الشبان المتعلمين الذين يعملون معنا هنا لا يتكلم كلمة واحدة فى اليوم . . طول النهار يعلِّم ويدرب فى هدوء وصمت وثبات ، الدرس الأول الذى يعلمه لهم هو الصمت والثانى الثبات . . يفرض عليهم أن تمر ساعة كاملة من التدريب دون أن ينبس واحد منهم بكلمة ، يقول لهم : « ليفهم الواحد منكم الآخر بالنظر فقط . . دائماً عيونكم تنظر إلى حيث العدو وأصابعكم على الزناد . . أحب الرجل الذى ينظر بعين الصقر . . »

ـ هذا زكى شنوده . .

ـ تعرفينه ؟ . .

ـ إنه يذكرنى بصورة تمثال مصرى قديم رأيتها . .

ـ أظن أنه ما زال هنا . . سيقود الدفعة الأخيرة من الرجال التى ستعبر النهر هذه الليلة . .

ـ أريد أن أراه . .

ـ آتيك به . .

ويمضى ، وتسير مصر إلى غرفة ابنها فتنظر إليه وقد استسلم للنوم . . تقبله ، ثم تنظر إلى حليمة وتسحب الغطاء عليها . ثم تستوثق من أن باب الغرفة المؤدى إلى الحقل مغلق . تضع يدها تحت وسادة آدم وتخرج مصحفاً فتقبله ثم تعيده إلى مكانه . . تخرج وتعود إلى القاعة ، فتجد عبد الرحيم فى انتظارها وإلى جانبه شاب وسيم الطلعة أسود الشعر أسمر

اللون يرتدى قميصاً خشناً وبنطلوناً رماديين، ولكنه أنيق حسن الهندام..
قالت له وهى تمد يدها إليه :

ــ إننى أعرفك يازكى شنوده . .

ــ وأنا أعرفك من زمن طويل جداً . . قبل أن أعرف قريتكم هذه . .

ــ وكيف عرفتنى إذا كنت لم أبرح بلدى هذا ؟ . .

ــ عندما رأيتك أول مرة مع صلاح أحسست أن صورتك ليست غريبة عنى .. ذكرتنى بتمثال للإلٰهة إيزيس فى الجبل قرب ديروط . . تمثال رائع من الجرانيت لإيزيس واقفة تنظر إلى الأفق ، لابسة مثل ملابسك هذه . . هتفت عندما رأيتك : إيزيس ! هذه إيزيس ! . . وهناك صورة أخرى من هذا التمثال فى متحف أسيوط . كان حارس المتحف عم جرجس يمسح التمثال بمنديل من الكتان ويقول : « انظروا يا أولاد . . هذه أم مصر كلها . . . انظروا إلى عينيها ، إلى أنفها . . إلى العزة والكبرياء فى ملامحها تعرفوا معنى مصر . . هذه أمكم » . . . صدقينى ياست ياطاهرة . . أنت عندى إيزيس . .

ــ إننى أدعو الله أن يحرسكم جميعاً . .

وقال عبد الرحيم : « زكى . . اذهب الآن . . الرجال ينتظرونك . . »

فقال وهو ينظر إلى الست الطاهرة : « صلاح يقول إنك لا بد أن تزورينا فى الموقع . . »

ــ بإذن الله . . المهم أن تحافظوا على أنفسكم وعلى الرجال . .

ثم التفت زكى شنوده إلى عبد الرحيم وقال : « ولكن قبل أن أذهب أريد أن أسألك عن صابر . . »

ــ سيكون عندكم الليلة . . ألستم ذاهبين الليلة ؟

ــ لا بد أن نكون هناك فى الفجر . .

ــ ستجدونه هناك . . حافظوا على أنفسكم . . خذوا بالكم من الدوامات عندما تمرون أمامها . .

ــ سنمر جنوبها . .

ــ ابتعدوا عنها قدر الطاقة . . ألا تستطيعون أن تختاروا مكاناً آخر غير شاطئها ؟ . .

ــ لا يمكن . . إننا نحتمى بها . .

ــ إذن على بركة الله . .

وحياها وخرج ، وتبعه عبد الرحيم .. وأغلقت الباب .. وساد الصمت .

وسارت مصر ففتحت نافذة تطل على الحقل ، ودخل هواء منعش ، تنفست من أعماق صدرها ووقفت ونظرها مرسل فى الظلام . من بعيد تراءت أضواء خافتة تتراقص فى هدوء الليل ، تلك هى أنوار الضفة الأخرى ، حيث يربض العدو الذى يريد أن يغتالها . لا بد من القضاء عليه . الأضواء الصغيرة تترقرق فى صفحة الماء وتلمع كأنها نجوم . . خيل إليها أنها تسمع تلاطم أمواج النهر الخالد وهى تتوالى فى سيرها الأبدى إلى حيث لا يعلم إلا الله . . هذه المياه ينبغى أن تظل طاهرة ، لا يمكن أن نسمح للعدو بأن يدنسها . . لا بد من أن يزول . . لا بد من أن نستعيدها . .

ورفعت يديها وقالت : « هذه أرضى . . هذه لحمى ودمى . . هذه أنا . . لا بد أن أستعيد نفسى . . »

ودخلت حليمة فرأتها فى مكانها ، فتقدمت محاذرة أن تزعجها ، فلما اقتربت منها قالت : « سيدتى . . لا بد أن تستريحى . . لا بد أن تتناولى شيئاً . . منذ الصباح لم تأكلى شيئاً . . لا يمكن أن تعيشى على الماء وحده . . »

— إنها أرضنا ياحليمة . . هذه أرضى وأرض رجالى وأرض أبى . . هناك يرقد الشيخ الجليل . . هناك المقام المقدس . .

— له رب يحميه . .

— الله يحمى أرضه بالمخلصين من عباده ياحليمة . .

— المخلصون كثيرون . . إنهم يعملون كماترين . . . هذه الأرض لها رجالها دائماً ، ولكنك تهلكين نفسك . .

— إننى خائفة على رجالى ، لأن العدو هذه المرة غادر شرير . . . إنه ليس مجرد طالب عيش . . بل وحش كاسر . . لو تركناه لشرب ماء النيل كله ووصل إلينا . . لا يكفى طرده . . لا بد من القضاء عليه . . .

— ولكنك لن تستطيعى ذلك إذا مضيت تهلكين نفسك على هذه الصورة . . لا بد أن تستريحى الآن . .

— ولكننى لست متعبة . . إننى وحيدة . . برغم كل ما ترين . . أشعر أننى وحدى . . أولادى كثيرون ، ورجالى كثيرون ، ولكننى أشعر بوحدة موحشة . . قلبى كأنه خلاء واسع مظلم » . .

— سمعت أن أباك الشيخ إبراهيم كان يقول ذلك . .

— أظن ذلك . . وكان يقول إن الأنبياء والصلحاء جميعاً كانوا يعيشون فى وحدة . . كانوا يعيشون وسط الناس ليلا ونهاراً ومع ذلك كانوا

يشعرون بوحدة رهيبة . . كان بعضهم يقول : « ويل لى . . إننى أعيش على قمة الجبل وحدى . . » . .

– إذن لماذا تشكين ؟ . . لا مفر لك من هذه الوحدة . .

– ولكنى امرأة ياحليمة . . أنا امرأة مثلك . .

فصمتت حليمة برهة ، ثم أنصتت مصغية نحو باب غرفة آدم وقالت : « آدم . . هل صحا ؟ . . أتسمعين صوته ؟ . . »

وأنصتت مصر قليلا ، ثم ذهبت نحو الباب ففتحته وألقت نظرة ثم عادت تقول :

– لا . . . إنه نائم . .

وبعد لحظة عادت تقول : « كلكم تنسون . . . إننى امرأة . . . »

فسكتت حليمة برهة ثم نظرت إلى وجهها وقالت : « مازلت تحبينه . . »

ولم ترد الطاهرة ، بل ظلت ناظرة إلى الأرض ، ثم هزت رأسها وقالت : « لا أدرى . . لا أدرى حقيقة شعورى . . . أحياناً لا أدرى من أنا أو من أنتم . . . » فعادت حليمة تقول : « لا تهربى من الجواب ... أما زلت تحبينه . . ؟ »

فرفعت رأسها بعد برهة وتجلى وجهها بغاية جماله وقالت : « لماذا تصرين على هذه العبارة ؟ . . »

– لأنى أعرفك . . لاتنسى ياطاهرة . . . كنا صبيتين معاً . . . ثم أصبحنا شابتين تعيشان بقلب واحد .. هل تذكرين تلك الأيام ؟ ...

– مع الأسف . . . مازلت أذكرها . . .

– لماذا تهربين من نفسك ؟ . .

ــ ليتنى أعرف أين نفسى . .

ــ بل لا تدرين أين قلبك . .

ــ وأين قلبي يا حليمة ؟ . .

ــ قلب المرأة يظل دائماً عند حبها الأول . .

فقالت فى ألم شديد : « حبي الأول ؟ . . أين هو حبي الأول ؟ . . ألم تسمعى يا حليمة أن الحب عصفور لا يحب الأقفاص ؟ . . »

ــ ولكن كل عصفور يحب عشه . .

فنظرت مصر حولها ثم إلى السقف ، ثم قالت : « وأين هو عشى؟ . . » ثم ضحكت فى مرارة وقالت : « عشى ؟ هذا عشى . . . »

فقالت حليمة : « أنا امرأة متزوجة مثلك ، وأفهم هذه الأمور . . . الرجل يعود دائماً إلى عشه ، ما لم يتخذ عشاً آخر . . »

فقالت فى غضب : « لا يجرؤ . . »

ــ لو كنت منه ما جرؤت . . . ولو كنت منك ماحزنت . . ليس فيهم واحد يستحق الحزن . .

ــ لا أدرى . . .

ــ على أى حال . . . لا تغلقى الباب أبداً . . .

ــ لن أغلق الباب مالم يدخل باباً آخر . . .

ــ وحتى . . لو أخطأ ؟ . .

ــ لو أخطأ انتهى كل شىء . .

ــ نحن النساء نعفو دائماً . .

ــ فى هذه الحالة لا تعفو المرأة ، ولكنها تقبل الذل . . . وأنا

لا أقبله . . ليس هناك ما يدعو أحداً إلى أن يقبل الذل أبداً . . لا الحب ولا لقمة العيش . .

– ولا آدم ؟ . . ولا الأولاد ؟ . .

– ولا آدم . . .

– هذه قسوة . .

– ياحليمة . . لو تقبلت الذل فى سبيله لورث عنى هذا الذل ، وهذه جريمة فى حقه . . .

– على أى حال . . لم يحدث شىء إلى الآن . . فلماذا لا تدعين الباب مفتوحاً ؟ . .

فهزت مصر رأسها وجلست صامتة . وقالت حليمة : « آن أن تستريحى ياحبيبتى . . »

– أظن ذلك . . وراءنا غداً عمل كثير . .

– تصبحين على خير . .

– حليمة..لا أستطيع أن أنام قبل أن أطمئن على عم عبد الرحيم وصلاح الفوال وزكى شنوده وبقية الرجال . .

– نامى أنت ودعى ذلك لى . .

– وصابر . .

– ودعى هذا أيضاً لى . . نامى أنت وكفاك أن تعتنى بآدم . . .

وأشرقت أسارير الأم وهى فى طريقها إلى حجرتها وحليمة تنظر إليها فى حنان ، وقبل أن تفتح الباب نظرت إلى حليمة وقالت: « وريحان ... أرجوك ياحليمة..قبل أن تنامى انظرى إلى ريحان .. اطمئنى

عليه ، قولى لواحد من الرجال ينام قرب بابه ، إننى أخاف عليه . .

ــ ليتنا نخاف عليك كما تخافين علينا كلنا . . »

وفتحت الباب ودخلت وأغلقته خلفها ، وذهبت حليمة فأغلقت النوافذ المفتوحة . . ثم خفضت نور المصباح الغازى وخرجت على أطراف أصابعها . .

* * *

حِدْآن كثيرة تحوم فوق غابة النخيل . عشرات منها تطير وتتدافع فى الجو وتقترب من رؤوس النخيل ثم تعلو . رفع الشيخ سعد رأسه إلى أعلى وتعجب : « جنت هذه الحدآن ولا شك . . أم تعلمت أكل التمر ؟ . . غير ممكن . . الحدأة لا تحوم إلا على اللحم ، لا بد أن هناك لحما . . آه . . هاهو ذا كلب ميت ! لو كان حياً لما جرؤت واحدة منكن يابنات الأبالسة على الاقتراب منه . . سأرى شجاعتكن ! »

ثم رفع بندقيته وصوب نحو إحداهن وجعل يتابعها ، ثم أطلق النار. لم يصبها ، ولكن الحدآن كلها تطايرت واختفت . .

ضحك لنفسه وقال : « فهمت السر . . لكيلا تتخاطفك الكواسر لا بد أن تكون لك أسنان أو فى يدك سلاح . . »

وسمع صوتاً قادماً من بعيد ، فسار فى هدوء نحو جذع نخلة ورفعه بجهد شديد ، فانكشفت تحته حفرة فوضع فيها البندقية وأعاد الجذع .

وأقبل رجلان يعدوان ، فلما رأياه نادياه : « من أنت ؟ . . »

ــ أنا سعد إمام الجامع . .

ــ وماذا تعمل هنا ؟ . .

ـ أجمع البلح الساقط على الأرض . .

ـ وهل هذا عملك ؟

ـ هذا نخل الجامع . . هذا نخل مقام الشيخ إبراهيم وأنا خادمه . .

ـ هل سمعت عياراً ناريا ؟ . .

ـ ماسمعت . .

ـ الصوت أتى من هذه الناحية . .

ـ لا أدرى . . ما سمعت شيئاً . .

فقال أحد الرجلين للآخر : « هذا حمار يا أخى لا يفهم شيئاً . . لماذا تسأله ؟ . . هذا ما رأى بندقية فى حياته . . » ومضيا واختفيا فى النخيل . .

ـ يا أولاد الأبالسة ! وضعتم أيديكم على أرضنا ودستموها بأقدامكم القذرة . . . أيتها الحدآن آكلات الجيف ! طلقة واحدة فى الهواء فلا تبقى منكن واحدة ! المرة القادمة سأحسن التصويب . . وستتبدد الأبالسة والحدآن وكل الكواسر العادية . .

* * *

القصر رابض كالحصن وسط الأشجار والنخيل ، يحيط به سور كبير يمنع الدنيا من ولوج بابه . من هذا الباب إلى السلم الرخامى يمتد رمل أحمر أنيق يقوم على جانبية نخيل ملكى أبيض وأصص زهور . . .

وقف عند البوابة ينتظر الإذن له فى الدخول ، وبصره مرسل مع الممشى الرملى الأحمر المؤدى إلى سلم الرخام والآمال . أحس وهو ينتظر

أنه يصغر شيئاً فشيئاً ، وملابسه التى تأنق فيها أخذت تتهلهل فى إحساسه أمام الفخامة التى رآها . كان قد نزع عن نفسه ملابس الصيادين وارتدى البذلة الوحيدة التى لديه . كانت هى قد اشترتها له فى العام الماضى ، عندما رضيت عنه وأعجبها وأذنت له فى أن يقود لها اللنش ويمضى بها فى نزهات على صفحة النهر كأنها الأحلام . .

منذ الخريف الماضى وهذه الأحلام تؤرقه وتملأ نفسه بخيالات كأنها فقاعات هائلة . . لا يزال يذكر ساعات الأصيل واللنش يمضى بهما كالسهم على صفحة الماء ، ويدها على يده وصدرها يدفئ ظهره وخدها على خده . . . أحلم هذا أم علم ؟ . . دنيا هذه أم أخرى ؟ . . أيامها كان يرى نفسه ضخماً كهذا القصر . .

أما الآن وهو على باب القصر يلتمس الإذن ، وهذا البواب القاسى يقتحمه بنظراته ويرميه من عينيه بشرر ، فهو يحس بنفسه حقيراً صغيراً . . أصغر وأقل من هذه الجرادة التى تقفز عند قدميه . . إنها على أى حال فى بيتها . .

وجاء من باب القصر أعلى السلم الرخامى خادم يجرى يحمل الإذن له بالدخول ، وقرأ فى عينى البواب أن قيمته زادت فارتفع رأسه . .

فى البهو الذى أدخلوه فيه شعر مرة أخرى بصغر قدره ، كل ما هنا جميل كبير غال ورفيع ، إلا هو . . قطع الأثاث والسجاد على الأرض ، والثريا فى السقف ، والستر على النوافذ ، والمرايا والصور على الجدران ، كلها لها أثمان غالية . . ليس هنا شىء لا قيمة له ولا ثمن ، إلا هو .

وانتظر . . حتى صار أضأل من نملة . . ثم انفتح باب ضخم

ودخلت ربة القصر وعروس الأحلام : عزيزة هانم ماهر صاحبة الأرض الواسعة . . ورثت بعضها عن أبيها ، وبعضها الآخر حصلت عليه من زوجها الأول . . ثم طلقت من زوجها الثانى – وهو ابن عمها – وأخذت منه مالا عريضاً ، ولكنها لم تقطع صلتها به . . إن المال يجذب المال ، وأصحاب المال كلهم أقارب ، والمال نسب . .

ثم أنشأ معها ومع نفر من أقاربها شركة لاستغلال أراضى هذه الناحية . . يقولون إنهم سينشئون مدينة تجعل من رأس البر مصيفاً عالميا فيه الفنادق الفخمة والمطاعم الفاخرة وملاعب القمار وعلب الليل والمتعة .. إنهم يعملون الآن فى جد .. خطوتهم القادمة هى الاستيلاء على أرض الشيخ إبراهيم واغتصابها من الصيادين وضمها إلى أراضيهم بالقوة . .

دخلت فى بذلة ركوب خيل أنيقة . . كانت عائدة لتوها من الجرى بالحصان فى أحراج النخيل التى تملكها . نظرت إليه طويلا ثم قالت بشىء من عدم الاكتراث : « ريس إسماعيل . . ؟ لم يقل لى أحد أنك أتيت إلا من لحظة . . »

– أخشى أن أكون متطفلا . .

فأشعلت سيجارة ثم قالت : « كيف الحال عندكم ؟ »

– حسن بفضلكم . .

– يقولون إن جماعة من الصيادين يزعمون أن أرض الشيخ إبراهيم ملكهم . .

– هكذا نسمع من زمن بعيد . .

ـ هذا الشيخ إبراهيم وضع يده عليها . .

ـ لا أدرى . . كنت أسمع أن وزارة الأوقاف أعطته إياها ليبنى مسجداً . .

ـ هذه ليست أرض وزارة الأوقاف . .

ـ الشيخ إبراهيم وحده هو الذى كان يعرف حقيقة الأمر . .

فسكتت لحظة ثم جلست ، ودعته إلى الجلوس ، وقالت وهى تنظر إليه : « وابنته ؟ . . زوجتك أقصد . . ألا تعرف ؟ . . »

ـ أعرف أنها تصر على أن الأرض أرض الجامع . وأن أباها أخذها من وزارة الأوقاف ، وأظن أن لديها وثيقة بذلك . .

فقالت له ، وقد تغير صوتها مائلا إلى الرقة : « اقترب منى قليلا . . . أريد أن أسمع ما تقول . . ألم يحضروا لك شيئاً . . قهوة ؟ . . أنا أعرف أنك تحب القهوة . . أنت تصنعها جيداً . . »

فشعر بالأنس يملأ قلبه ، ولمعت عيناه وهو يقول : « كنت أعملها لك فى اللنش عندما نرسو عند حصن النصارى . . »

فضحكت وقالت : « أما زلت تذكر ؟ . . »

ـ وهل أذكر إلا ذلك ؟ .. طول العام وأنا أفكر فيه . .

فنهضت إلى الباب وأمرت بالقهوة ، ثم عادت فقدمت له سيجارة وأشعلتها له ، وجلست قريباً منه وقالت : « قلتَ لى إن لديها وثيقة بالأرض .. »

ـ نعم . . حجة . . حجة تسلمها الشيخ إبراهيم من الأوقاف . .

ـ وماذا فى هذه الحجة ؟ . .

– فيها كلام كثير . .

– عن هذه الأرض ؟ . .

– عن كل أرض الشيخ إبراهيم . . كل هذه المساحة التى يقوم فيها الجامع ومساكن الصيادين . .

– هل رأيتها أنت بنفسك ؟

– رأيتها مراراً ، ولكنى لم أقرأها . .

– وأين تحتفظ بها ؟ . .

– أظن أنى أعرف . . .

– كنت أريد فقط أن أرى هذه الوثيقة . .

– إنها تخفيها فى غرفة ابننا آدم . . أستطيع أن أقرأها وأقول لك ما فيها . .

وهنا دخل الخادم بالقهوة ، ووضعها على المنضدة الصغيرة ، وقالت له وهو يقترب من الباب خارجا : « اقفل الباب . . لا أريد أن يدخل أحد الآن . . عندنا عمل . . »

وخرج الخادم وأقفل الباب ، وقالت لإسماعيل : « هنا غير مناسب للحديث . . تعال فى هذه الغرفة الصغيرة . . هات قهوتك وتعال . . »

ودخلت به إلى صالون صغير أنيق يطل على الحديقة ، فأخذت مكانها على أريكة وثيرة ونادته ليجلس إلى جوارها ، وسار بالقهوة على مهل ووضعها أمامه . وأشعلت له سيجارة ، وأخرى لنفسها وقالت : « ولكنى أريد أن أقرأها بنفسى . . »

– كل شىء ممكن . . ولكن . . لماذا يهمك أن تريها ؟ . .

ـــ لا لشيء . . لمجرد المعرفة . .

ثم وضعت يدها خلف رأسه وعبثت بشعره وقالت : « إذا كان ذلك صعباً عليك . . فأنا لا أريده . . »

فظل صامتاً ثم نظر إليها وقال : « سيلتى . . اطلبى منى روحى أعطك إياها . . اطلبى منى أى شيء أقدمه لك .. ولكن قبل أى شيء . . قولى لى . . ماذا أنا بالنسبة لك ؟ . . إننى صياد فقير . . كنت أعيش فى حدودى كأمثالى . . حتى كان العام الماضى . . لا أدرى ماذا جرى لى . . ثلاثة أسابيع مازلت أذكرها إلى الآن لحظة لحظة .. خرجت فيها من الدنيا التى كنت أعيش فيها ولم أستطع العودة بعد ذلك . . كل شيء فى حياتى الماضية تحطم ولم يعد له وجود .. إننى معلق فى الهواء .. قولى لى . . ماذا أنا بالنسبة لك ؟ . . »

ـــ ولماذا تريد أن تعرف ؟ . .

ـــ لأن مصيرى كله معلق بشفتيك . .

فسكتت لحظة ، ثم قالت فى هدوء : « ياريس إسماعيل . . ماذا تريد ؟ . . . فى العام الماضى عندما رأيتك أعجبتنى وتنزهنا وقضينا وقتاً سعيداً .. ومن الممكن جداً هذا العام أيضاً أن نقضى وقتاً أسعد . . ولكن ماذا نستطيع بعد ذلك ؟ . . أنت متزوج ولك ولد ، وأنا مقيدة بألف قيد . . صدقنى إننى أحبك . . ولكنى لا أريد لهذا الحب أن يؤذيك أو يؤذينى . . »

ـــ من ناحيتى . . هذا الحب لا يؤذينى . .

ـــ إننى أخاف عليك . .

– معنى ذلك أنك تحبيننى ؟ . .

– لا أدرى . .

– لاتعذبينى . .

– إننى أعذب نفسى أيضاً . . .

وساد صمت للحظات ، أشعلت له خلالها سيجارة ولنفسها أخرى ثم قالت : « إننا نتسرع . . لماذا لا ندع الأمور تمضى كما هى هذا الصيف أيضاً ، وبعد ذلك يكون ما يكون ؟ . . »

– لم أطلب إلا أن أعرف إن كنت تحبيننى . .

– وإذا قلت لك إننى أحبك ؟

– إذن فلا يهمنى فى الدنيا شىء . .

وضمها إلى صدره ، وأراد أن يقبلها فى فمها ، فحولت وجهها ، فسقطت القبلة على خدها . . وضمها إليه فى قوة ، ولمعت عيناه ببريق غريب . . ثم استقرت عيناه على بوفيه صغير عليه سوار وخاتم وبعض المصاغ موضوعة بدون نظام ، وإلى جانبها كيس نقود . . ومرت بوجهه ابتسامة خائفة وهو يدير بصره فى الحجرة وما فيها . . وقطع عليه تأملاته صوت رجل .. ونظر من خلال فرجة فى ستر النافذة فرأى رجلا على نخلة يأخذ من تمرها فى حجره ، وبدون أن تلتفت إليه قالت : « لصوص .. كل أهل هذا البلد لصوص يسرقوننى . . »

فقال فى هدوء : « إذا أردت لم أدع منهم أحداً هنا .. »

– هذا عشمى فيك . .

وتناول يدها ونظر فى عينيها ، فقالت : « نسينا أمر الحجة . . . »

ـ هل تريدينها حقاً ؟ . .

ـ نتكلم فيما بعد . .

ـ تحت أمرك . . .

ـ تنتظرنى عند الطابية . .

ـ اليوم ؟ . .

ـ شريكى ربما يأتى اليوم . .

ـ ولكنه لم يعد زوجك . . .

ـ مهما يكن فهو ابن عمى وشريكى . . وهناك أمور لا بد أن تراعى . . هذا من صالحك . .

ـ إذن متى ؟ . .

ـ غداً بعد الظهر . . الخامسة . .

ـ لا بد أن أعد اللنش . . .

ـ طبعاً . . .

ثم نادت خادمها فأقبل، وقالت له: « الريس إسماعيل سيعد اللنش . . أعطوه المفتاح ونفذوا له ما يريد . . . »

ـ شكراً ياست هانم . . . ربنا يخليك لنا . .

وسار وراء الخادم . لم يكلمه هذا كلمة ، ولا نظر إليه نظرة . حقاً إن المتغطرسين الحقيقيين ليسوا هم الأغنياء وإنما هم خدمهم . ماذا تظن نفسك أيها الكلب ؟ . . ألست خادماً حقيراً ؟ لماذا تتعالى علىّ ؟ . . ألا تعرف أننى سيد سيدتك ؟ . . سترى عندما أضرب ضربتى وأذل

هذه التى تسمونها سيدتكم . . سأركلك يوماً بقدمى ركلة تجعلك تعرف من أنا . . .

ووصلا إلى باب فى أقصى يسار الحديقة ، ففتحه الخادم وأشار إلى غرفة صغيرة على الشاطئ وقال له : « اللنش هناك .. حاسب عليه كعينيك . . وهذا هو المفتاح . . بعد أن تنتهى من عملك تعيده إلىّ . . »

ومد يده بالمفتاح فى ازدراء ، فأخذه إسماعيل وسار . . وفتح باب الغرفة فوجد القارب هناك ، وفتح الباب المطل على النهر . وأغلق الباب خلفه ، وخلع بنطلونه وطبقه بعناية شديدة ، وبحث عن مكان نظيف وضعه فيه ووضع عليه المفتاح .

كان الباب المطل على النهر يشمل الحائط كله تقريباً ، ففتحه على مصراعيه . وسار ، ثم جلس وأدلى رجليه فى الماء ، وحركهما فى صبيانية وهتف : « والله سلامات ياست ياطاهرة . . غداً تعرفين من إسماعيل . . غداً تقبّل قدمىّ ياعبد الرحيم ياكلب . . »

* * *

فى اليوم التالى ، وفى الخامسة تماماً ، كان فى مكانه لصق جدار الطابية الغارق إلى ربعه فى الماء. هذه الطابية قطعة من التاريخ . إنها من ذكريات الحروب الصليبية . أنشأها الصليبيون على ضفة النهر ، إلى الشمال بعيداً عن عزبة البرج — يسمونها « حصن النصارى » أو « الطابية » .. ظن أنه وحده ، ولكن عظاية ضخمة نبهته إلى أنه ليس سيد المكان . عظاية ضخمة يبدو أنها لا تخاف الإنس ، تقدمت نحوه فى بطء ورفعت إليه رأسها فشعر بخوف ، ورفع يده ليطردها . . هنا فقط

رأته ، ولمعت عيناها الجامدتان فى الشمس : وانحرفت وغابت عن ناظريه . .

تعب بصره من التحديق فى الأفق فى انتظار قاربها ، واستولى عليه الخوف من العظايات وإخوتها الثعابين ، وشعر بالمذلة تتسرب إلى نفسه ، وخطر بباله ابنه آدم فاشتاق إليه . .

آخر الأمر ربما كان عبد الرحيم على حق ، فنحن الصيادين علينا أن نقف صفاً واحداً لكى يحترمنا الآخرون . هؤلاء الآخرون جنس آخر غيرنا . إنهم يبصقون فى وجوهنا باستمرار ؛ والخيانة لا يمكن أن تؤدى إلا إلى الذل والعار . . أمى هى المسئولة عن الوقيعة بينى وبين الست الطاهرة . . أين أنا منها الآن ؟ . . هل تذكر يا إسماعيل أيام تزوجتها ؟. . كنت تخرج قبل الفجر للصيد ، وتظل هى ساهرة على باب البيت تنتظرك حتى تعود . . ما أبركك يا مصر وما أكرمك . . هل من سبيل إليك ؟ لعنة الله على الشيطان ! . .

ولكن هاهوذا اللنش مقبلاً من بعيد . . أخيراً أتت . . حقاً إنها تحبنى . . لا بد أن شيئاً أخرها . . سوف ترى ياعبد الرحيم ما أفعل بك . . .

هاهى ذى فى بهجتها كلها وأبهتها . . كل ما عليها حرير وذهب ! جسمها الجميل يرسل أشعة من عطر تملأ الجو كله ، ووجهها الأبيض الناصع الشفاف يغرى بالتقبيل ، وشعرها الذهبى يتموج مع الهواء ، وقميصها الأبيض يكشف عن عنق من فضة . . .

قفز إلى القارب ، وأمسك بدفته ، وجلست إلى جانبه . . وانطلق

القارب كأنه سهم مارق نحو السعادة : . والتف ذراعها حول عنقه ومست شفتاها خده . . وغمغمت فى صوت لا يكاد يسمع ، من هدير المحرك وصخب شق القارب لصفحة الماء بعنف : «لم تغب عن خيالى لحظة منذ أمس . . »

— هذا حالى منذ عام . . صورتك دائماً أمامى . . .

وتخطى القارب فى سرعته الخاطفة قرية صغيرة على الشاطئ ، من هنا إلى البحر لا توجد قرى ، واتجه إسماعيل به نحو الشاطئ الغربى ، وخفف السرعة وأرسى عند مكان فيه بناء صخرى متهدم أعلاه كأنه قاعدة تمثال . هذا المكان يسمونه برج السلسلة . هنا كان أهل دمياط يربطون السلسلة الضخمة التى تغلق مجرى النيل . هناك بناء ضخم مثل هذا على الضفة الأخرى .

ربط القارب إلى جذع شجرة وأخذها بين ذراعيه طويلا . .،وبعد لحظة قالت له : «وزوجتك ؟ . . كيف حال زوجتك ؟ . . »

— ليست لى زوجة . . أنت حبيبتى وزوجتى وكل شىء . .

— أسألك حقاً . . كيف حال زوجتك ؟ . .

— قلت لك لم تعد لى زوجة . .

— ماذا تعنى ؟ . .

— تركتها . . . تركتها لأجلك . .

— منذ متى ؟ . .

— من شهر . .

وأحس أن الخبر لم يسرها ، فلكه العجب ونظر إلى وجهها وقال : « هل ضايقك ذلك ؟ . . »

ـ لا . . . ولكن . . إذا كنت قد تركتها فمعنى ذلك أنها لا تعيش معك . . .

ـ تركت لها البيت حتى أرى كيف ننفصل . .

فقالت فجأة وبدون حرص : « إذن كيف ستأتيني بالحجة ؟ . . »

ـ أستطيع أن أدخل البيت وآتيك بها . .

وبعد لحظة تفكير مرت بيدها على صدره وقالت : « ولماذا تترك البيت ؟ . . »

ـ وكيف أعيش معها وأنا أحب غيرها ؟ . .

ـ لا أطالبك بحبها . . ولكن من صالحنا أن تعيش معها . .

فلم يفهم ماتريد ، وقال : « لقد تركتها وتركت بيتي لأجلك . . »

ـ ولأجلي ستعود إليها وإلى البيت . . .

ومرت أمام عينيه سحابة ، وأحست أنه لا يفهم .. حقاً إن الصياد لا يمكن إلا أن يكون صياداً .. ووضعت ذراعيها حول عنقه وابتسمت وقالت : « قلت لك افعل ما أقول لك لنصل إلى ما نريد . . . »

ـ إذا عدت إليها الآن ضاع كل شيء . .

ـ لا تدع كبرياءك تفسد علينا خطتنا . .

ـ وما هي خطتنا ؟ . . أفهميني فقط . . أحياناً أنا لا أفهم . .

ـ اسمع يا إسماعيل . . ماذا تريد في النهاية ؟ . .

فاستبدت به الحيرة ولم يجب ، فعادت تقول : « ألست تتمنى

مثلى أن يخلو لنا الجو ونعيش معاً إلى الأبد ؟ . . »

ـ طول العام وأنا أحلم بذلك . . ولكنى أحس الآن أننى واهم . . .

ـ دعنى أفكر لى ولك . . أنت شاب قوىّ وجميل وكل امرأة تتمناك . . ولكنك لا تعرف ما هو الحب . .

ـ أنا لا أعرف ما هو الحب ؟ . . خسرت بيتى وزوجتى وابنى ولا أعرف معنى الحب ؟ . .

ـ إذن لماذا تجعل كبرياءك تقف فى طريقنا ؟ . .

فقال فى صوت شاك متحير : « لقد طردتنى من البيت . . »

ـ هل طلقتها ؟ . .

ـ لا . . لم أطلقها بعد . .

ـ إذن تعود إلى بيتك . .

ـ ستغلق الباب فى وجهى . . .

ـ لن تفعل . . لأنها تحبك . . . هل أغلقت أنا بابى فى وجهك ؟ . .

ـ هذا شىء آخر . .

ـ نفس الشىء . . نحن النساء لا نستطيع أن نغلق أبوابنا فى وجه من نحب . .

ـ لا أدرى كيف أفعل ذلك . .

ـ تدوس على كبريائك هذه وتعود . .

ـ إنك لا تعرفينها . . إنها شديدة كالصخرة . .

ـ زوجى أيضاً كان كذلك . .

ـ ولكنك لم تعودى إليه . .

ــ ولكنى أعمل معه وأنفذ ما يريد . .

ففكر لحظات ثم قال : « إننى لا أفهمك . . أنت لا تعرفين مصر . . ألا تخشين إذا عدت إليها ألا أعود إليك ؟ . . »

ــ لا ... لا أخشى ذلك . . لأننى واثقة من حبك . .

فضحك فى مرارة ، وقال وكأنه يناجى نفسه : « آخ . . لو أثق أنا أيضاً من حبك ! »

فتعلقت برقبته ونظرت فى عينيه وقالت : «ألم أقل لك إنك لا تعرف الحب ؟ . . هأنذا بين يديك فماذا تريد ؟ . . »

ــ أريد أن تعرفى أننى أحبك . . وأننى مستعد لاقتحام الجحيم فى سبيلك . .

ــ وأنا ؟ . . ألم أترك الدنيا كلها من أجلك ؟ . . انظر حولك . . هل هنا إلا أنا وأنت ؟ . .

ــ وإذا كان الناس من حولنا . . هل تظلين كذلك ؟ . .

فالتصقت به . . وأحاطها بذراعيه ، وضمها إلى صدره فى عنف . . وقالت : « الآن أنت تصدقنى ؟ . . »

ــ لا أستطيع إلا أن أصدقك . . . حينما أكون معك أشعر كأننى لا إرادة لى . .

ــ هذا حالى أنا أيضاً معك . .

وكانت الشمس قد أخذت تغيب ، وهبت نسمات قوية تطاير معها شعرها وشعره ، وعبث الهواء بقميصها فزادها فتنة . . وفجأة انفلت

القارب من مربطه وانجرف مع الماء ، فقفز إسماعيل إلى الدفة وأمسك بها وقال لها : « أديرى المحرك . . . »

واتجهت إلى مؤخرة القارب وفعلت ما أمرها به . . وانطلق القارب وتماسك فى الماء مع السرعة ، وعادت إليه فطوقت خصره بذراعيها ، ووضعت خدها على ظهره وقالت : « يعجبنى الرجال عندما يأمرون . . »

ثم تقدمت فجلست إلى جواره ، وأحاطت رقبته بذراعيها وقبلته ، والماء يتطاير ويبلل وجهيهما . . وهمست فى أذنه : « ماذا قلت ؟ »

ـ سأعود إليها . . .

ـ هكذا أعرف أنك تحبنى . .

ـ كل ماتريدين . . .

ـ بعد ذلك أقول لك ما تفعل . . .

وبعد لحظة : « وكيف حال الصيد ؟ . . »

ـ الصيادون يقاطعوننى . .

ـ لايهمك . .

ـ أريد أن أترك الصيد . . .

ـ هذا أملى أنا أيضاً . . .

ـ ونعيش معاً . . .

ـ مالى كله تحت أمرك من الآن . . كل ماعندى تحت تصرفك . .

ـ لا . . . لا أريد شيئاً . .

ـ لا تعمل تكليفاً . . . فى الدولاب الصغير هنا تحت المحرك تجد صندوقاً فيه نقود . .

ـ عشت . . لا أريد الآن . .

ـ كل ماهناك لك .. خذه . . . سنحتاج إليه فى مشروعنا . . . ألم تقل إن الصيادين يقاطعونك ؟ . . عندما يرون فى يدك مالاً لن يقاطعوك . .

ـ أنت تفكرين فى كل شىء . .

ـ ألم أقل لك دع التفكير لى ؟ . .

وبعد لحظات ، وضعت ذراعيها حول رقبته وضمته إليها وهى تقول : «كل ما أريده منك أن تحبنى . . »

ولمع السرور فى عينيه ، واللنش يمرق طائراً فوق الماء ، ومال على ذراعها الملتفة حول عنقه وقبلها ، وأحس أنه بحاجة إلى سيجارة . .

* * *

كان ينتظر على العادة عند جدار الطابية ، استلقى على ظهره فى ظل الجدار ، ونظر إلى حجارته الأبدية المغطاة بالتراب. وقفت عيناه عند نافذة مهشمة نسج عنكبوت خيوطه على ركنها . . رأى العنكبوت يسير فى بطء على طرف نسيجه مضيفاً خيوطاً جديدة ، وفجأة توقف العنكبوت وجمد فى مكانه.. ذبابة دخلت فى النسيج وتحاول أن تتخلص... العنكبوت جامد كأنه حصاة علقت بالنسيج . المسكينة تجاهد، وكلما جاهدت زادت اشتباكاً . أخيراً تحرك العكنبوت فى بطء وأخذ يدور حول الأسيرة ، ويضيف خيوطاً أخرى . . شيئاً فشيئاً غطتها الخيوط ، وبنشاط رهيب وثب العنكبوت عليها ، واختفت تحته . .

هز رأسه وقال : « يا لكم من ذباب غبي ! مليون سنة والعناكب تدبر لكم نفس الشرك وتقعون بالصورة نفسها . . . حقًّا إنكم تستحقون الموت . . »

وتنبه على صوت اللنش قادماً يشق الماء ، هبّ واقفاً وتهلل وجهه ودبت الحياة فى كيانه كله ، وهو ينفض التراب عن ثيابه . .

* * *

ـ كم أخذ منك إلى الآن ؟ . .

ـ إننى أعطيه بالقطارة . . .

ـ من المال أقصد . . .

ـ هذا لا يهم . . أخذ كثيراً . .

ـ كم ؟

ـ قل مائتين . .

ـ كفاية . . .

ـ لا بد أن يغرق تماماً . . لا بد أن تغطيه النقود وترتفع فوق رأسه حتى لا يطفو . . .

فابتسم وقال : « هل لى أن أسأل : إلى أى حد تعطينه غير ذلك ؟ »

ـ من الحب تقصد ؟ . .

ـ لا أدرى إن كان من حقى أن أسأل . . .

ـ ليس من حقك ، ولكنى أقول لك لأننى أريد أن أقول ذلك لأحد . . الكتمان متعب . .

ـ قولى ولا تخافى . . . لا تنسى . . كنا زوجين فى يوم من الأيام . .

ـ ألست آسفاً على تلك الأيام ؟ . .

ـ دائماً أشعر بالأسف . . ولكنك لا تريدين زوجاً . . أنت تريدين عبداً . .

ـ وأنت ماذا أردت منى : السيدة أم الجارية ؟ . .

ـ حاولت الأولى فلم أنجح ، والثانية فلم أنجح أيضاً . .

ـ أذمّ هذا أم مديح ؟ . .

ـ كما هو حالنا معاً دائماً : من هذا على ذاك . .

ـ لهذا هو يعجبنى . .

ـ حذار . . ليس من صالحنا أن يعجبك . .

ـ إذا أعجبنى فليست لى حيلة . . .

ـ أخشى أن يعجبك فعلا . .

ـ إذا كنت تخشى ذلك حقّاً فأنت ما زلت لا تفهمنى . .

ـ لقد اعترفت مراراً أن فهمك عسير علىّ جدّاً . . يكفى أن نتفق على أشياء معينة هى التى تهمنا ونترك ماعداها . . هذه مثلا . . ماهو الموقف الآن ؟ . .

ـ لصالح العمل فقط أصارحك . . هناك لحظات يعجبنى فيها . . لحظات فقط ، وعندما أعود إلى بيتى أتركه خارج الباب . .

ـ وهو ؟ . . ألا يحاول أن يتخطى الباب ؟ . .

ـ نعم . . ككل رجل . . ولكنه سيظل دائماً فى المكان الذى أحدده له . . .

ـ ومتى يفعل ما نريد ؟ . .

ـ لم يبق إلا القليل . . لا بد أن يغرق تماماً أولا . .

ـ إذن أسرعى . .

ـ لكل شىء وقته . .

* * *

المقهى الصغير على شاطئ الترعة خال من الناس ؛ وصاحب المقهى غير موجود . إلى منضدة صغيرة بقرب النافذة جلس إسماعيل يدخن سيجارة . هذه أول مرة يرى المقهى خالياً من الناس فى هذه الساعة من المساء . . . لقد رفع أذان العشاء منذ قليل ؛ وفى مثل هذه الساعة يكون المقهى عادة غاصًّا بالناس . عندما يرفع أذان العشاء يتجه بعض الناس إلى المسجد ؛ وبعضهم الآخر إلى هذا المقهى ، أو الخمارة كما يسميها بعض الناس . . .

بعد قليل دخل شربية صاحب المقهى من باب جانبى . وقف مكانه عندما وقع بصره على إسماعيل ، ثم قال وهو يتقدم نحوه : « والله زمان . . . »

ـ مشغول والله يا شربية . .

ـ طبعاً يا عم . . . من مثلك ؟ . . سرايات وبنات ذوات ولنش وملابس حرير . .

ـ ألم أقل لك إننى لا أحب الفقر ؟ . .

فقال شربية فى حزن : « ولهذا تركته كله لى . . »

ودار بيصره فى المكان وهز رأسه أسفاً ، ثم مضى يقول : « انخرب بيتى . . . »

ــ ما الذى حدث ؟ . .

ــ الناس قاطعونى لصلتى بك . .

ــ ولكنى لم آت إلى هنا منذ أسابيع . .

ــ يظنون أنك هنا كل ليلة . . أول أمس حطم الصبيان هذه النافذة بالطوب . . .

ــ لماذا ؟ . .

ــ لا أدرى من قال لهم إنك معها هنا . .

ــ ولكن ألا ينظرون أولاً قبل أن يضربوا ؟ . .

ــ إنهم غضاب . . والغاضب لا يرى . .

ــ عزيزة هانم لا ذنب لها . . . ولكن كل الذنب من الأخرى . .

ــ لماذا تركت زوجتك ؟ . . . أى جنون فعلت ؟ . .

ــ هى طردتنى . . أنت تعرف ماحدث . . .

ــ وما العمل الآن ؟ . . إننى على وشك الإفلاس . .

ــ لا تخف . . خذ . .

وأخرج من جيبه نقوداً كثيرة وضعها على المنضدة وقال : « خذ ياشربية . . هذا كله لك . . »

قالها فى بطء وجد شديدين ، فاتسعت حدقتا الآخر ولم يصدق

عينيه . وقال وهو يجلس على مهل ونظره مثبت فى وجه صاحبه : « هذه فلوس كثيرة جداً يا إسماعيل .. »

— وعندى أكثر . . هذا نصيبك . . . ما أكثر ما أقرضتنى وساعدتنى . . .

— ولكن هذه النقود لن تنفعنى كثيراً يا إسماعيل . . . أستطيع أن أسير بها بضعة أشهر . . ثم تنفد . .

— عندها آتيك بغيرها . . إنها فى إصبعى كالخاتم . .

— من هى ؟ . .

— عزيزة هانم . .

— لا تخدع نفسك يا إسماعيل . هؤلاء الناس يلعبون بك . .

— صدقنى . . . أنا الذى ألعب بهم . . . من نصف ساعة فقط كانت بين ذراعىّ هاتين . . ومالها كله فى يدى . .

— عد إلى رشدك يا إسماعيل . . هذه بلادنا ونحن نعرفها . . نحن لسنا فى السينما ، وبنت الباشا هنا لا تتزوج الجنايني .

— وإذا أحبته ؟ . .

— هذا الحب مستحيل فى بلادنا . . . عالمنا عالم مقامات ، ولكل إنسان مكانه . .

— لقد تغيرت الدنيا . . والباشا لم يعد باشا . .

— ولكن بنت الباشا تظل دائماً بنت الباشا . .

— ولكن هذه ليست بنت الباشا . . إنها الباشا نفسه . .

فأمسك شريبة بكتفيه وهزه بشدة قائلا : « يا ابنى يا إسماعيل أفق لنفسك . أى باشا وأى بنت باشا ؟ . . أنت صياد فقير مثل الألوف هنا .. لو نفخوا فيك نفخة تطايرت فى الهواء . . »

فنظر إسماعيل إليه طويلا ثم قال : « يبدو أنك خائف حقاً . . »

ــ كلنا خائفون هنا . . انظر حولك تفهم . . لم يدخل مقهاى هذا أحد من أسبوعين . . لقد باعت امرأتى مصاغها . .

ــ ولكنى قلت لك : هذا هو المال بين يديك، وأنت لا تريد أخذه .. أتريده أم لا تريده ؟ . .

ــ أريد كل مليم فيه . .

ــ إذن ضعه فى جيبك وأصغ إلىّ . .

فأخذ شريبة الأوراق المالية فى يده ودسها فى جيبه وهو يقول : « لن أصغى إليك، ولكنك أنت ستصغى إلىّ . . دعك من أولئك الناس، فهم يلعبون بك ، وعد إلى زوجتك . . إننى أتكلم جاداً الآن . . اسمعنى جيداً . . »

ــ دعك من جدك هذا فليس وراءه إلا الفقر . . هات لى زجاجة لكى نتكلم فى هدوء . .

ــ قسماً بالله ما عندى ولا رائحة زجاجة . . كل شىء انتهى يا إسماعيل . .

ــ إذن فاصنع لى فنجان قهوة . .

ــ أظن أن عندى شيئاً من البن . . ولكن أصغ إلى ما أقول . .

ونهض الرجل فذهب إلى منصته ومضى يعمل القهوة وهو يقول : «عد إلى زوجتك . . »

– بعد الذى فعلته معى ؟ . .

– إنها لم تفعل بك شيئاً . . أنت الذى تبطرت على النعمة . . كنت تعيش فى أحسن بيت هنا . . وزوجتك ست أهل البلد ، وكان رزقك وافراً . . .

– تقصد أن أحتمل الإهانة لأن البيت بيت أبيها ؟ . .

– إنها لم تعمل معك شيئاً سيئاً ، ولكنك أنت لعبى طول عمرك . .

– وأنت ؟ . . ألم تكن شريكى فى اللعب دائماً ؟ . .

– هذا موضوع آخر يا إسماعيل . . وأنا لم ألعب قط بزوجتى وبيتى ، ولم أزين لك الجرى مع هذه المرأة . .

– وهل زوجتى تعرف شيئاً عن ذلك ؟ . .

– أظن أنها تعرف ، ولكنها لا تصدق . . تظن أنها إشاعات . . اذهب إليها وعد إلى بيتك وابنك أولى بك . .

– ولكن كيف أعود ياشربية وهى لا تريدنى ؟

وحمل إليه القهوة وصبها فى الفنجان وجلس وقال : «معك سيجارة ؟..»

وأعطاه واحدة وأخذ واحدة . . وانتشر الدخان فى المكان واختلط برائحة القهوة ، وهدأ الجو بعض الشىء . . وقال إسماعيل : «أنا لا مانع عندى من العودة إلى امرأتى ، ولكن كيف ؟ . . »

– امرأتى ابنة عم حليمة ، وهى تستطيع أن تمهد لك الطريق . .



– وهل تظن أن الطاهرة لن تثور فى وجهى إذا رأتنى ؟ . .

– ستثور ، ولكن ينبغى أن تحتمل لأنك المخطئ . .

– هل تظن أنت أيضاً أننى المخطئ ؟ . .

– المال الذى فى جيبى يؤكد لى أنك المخطئ ، أخز الشيطان وعد إلى بيتك حتى لا تعرضنا كلنا لكارثة . .

– ومتى تقوم زوجتك بالكلام مع حليمة ؟

– ستبدأ من الليلة . . إذا شئت . .

– وهل صحيح أن الصيادين غاضبون علىّ ؟ . .

– إذا رضيت هى عنك رضوا هم . .

وساد الصمت لحظة ، ونفث إسماعيل الدخان من فمه ثم قال : « أريد أن أرى ابنى ياشربية . . اشتقت لرؤية آدم . . »

– قم اذهب إلى بيت أمك الليلة ، وغداً يفتح الله علينا بالحل . .

– لا أريد أن أبيت فى بيت أمى . . لى أيام لم أذهب إليها ، وستأخذ فى سؤالى ، ثم إنها تكره زوجتى ، ولا أريد أن تفسد علىّ خطتى . . .

– إذن تعال ونم عندى الليلة

– أما عندك قطرة فى زجاجة نبل بها ريقنا ؟ . .

– ولا رائحتها وحياة أبيك . . لقد أهلكتنا جميعاً وأنت تتنزه وتلعب . .

ـ وهل كنت أستطيع غير ذلك ؟ . .

• • •

شاطئ النيل ساجٍ قبيل الفجر . كل شيء مستغرق فى نوم عميق، حتى صرّار الليل تعب من عزف قيثارته وأراح ساقيه . . مياه النيل تحكى قصتها الأبدية للشاطئ فى شبه الهمس ، مخافة إيقاظ الشجر . .

مع أشعة الفجر الأولى بدأت الطيور فى أعشاشها تحرك أجنحتها ، ثم بدأت تتنادى وتتبادل البشرى بقرب طلوع اليوم الجديد . .

وعند أسفل شجرة ضخمة ـ كأنها أم رؤوم ـ وقفت الست الطاهرة ومن خلفها عبد الرحيم . كانا ينظران فى الماء الساكن فى صمت كأنهما ينتظران شيئاً . ها هو ذا القارب قادم من بعيد كأنه سحابة سوداء طافية على سطح الماء . المجداف يضرب فى الماء فى رفق وحذر ، والمراكبي ينظر خلفه وحوله ليتأكد من أن أحداً لا يشعر به أو بقاربه . اتجه فى رفق نحو الشجرة . وبعد دقائق كان قد قفز إلى الشاطئ وسلم على الست ثم على عبد الرحيم . ودخلت القارب وخلفها الصعيدى القوى الذى يشبه « أطلس » حامل الأرض . ومضى القارب نحو الشاطئ الآخر فى رفق وصمت . .

وبينما كانت ضربات المجداف تتوالى فى حركة رتيبة ، كان كل منهم يسبح فى همومه ومشاغله ، ثم ترامى إلى سمعهم أذان الفجر مقبلا من الشاطئ. وطارت الطيور وأخذت تحوم فوق الماء . وقال عبد الرحيم : « لم تأكلى شيئاً ياست . . . »

– وأنت ؟ ماذا أكلت ؟

– شربت كوباً من الشاى وأنا أنتظرك . .

– سيعملون لى شايا عندما نصل . .

– ولكنك لا تستطيعين أن تعيشى على الشاى . .

– هذا لا يهم ، المهم أن نقوم بواجبنا . .

– سمعت هذا الكلام مرة من أبيك الشيخ إبراهيم . . كنتِ أيامها صبية فى العاشرة وكنت تهلكين نفسك فى عمل الطعام للمريدين حتى العاشرة من الليل ، وقلت للشيخ الله يرحمه : « الطاهرة لا بد أن تستريح ياشيخ إبراهيم ، سآخذها للبيت وسنتولى نحن العمل عنها . . » فابتسم وقال : « دعها . . إنها أمكم جميعاً ، والأم تعيش بالنظر إلى أبنائها . . » لقد وضع أبوك على كتفيك حملا ثقيلا منذ مولدك . . .

– هذا ليس حملاً ولا هو يجهدنى . . أنت تعرف ما يقلق بالى . .

وصمتت وأرسلت نظرها فى الماء ، وعبرت بوجهها سحابة حزن . كان حاجب الشمس يتراءى من بعيد . وقع الشعاع الأحمر على وجهها الجميل تحيط به الطرحة السوداء . ونظر إليها عبد الرحيم فى صمت وقال فى نفسه: « سبحان الله ! ما أجملك ! . . والله لولا أننى مسلم ومؤمن بالله لعبدتك . . »

وخطرت بباله صورة رآها كثيراً على جدران المعابد فى الصعيد : إيزيس رافعة رأسها ، وجانب وجهها يبدو وكأنه سحر خالص ، وقد تأنق الرسام القديم فى رسم قامتها المنسرحة الفاتنة ، وعند قدميها ركع كاهن

وتناول يدها . خيل إليه أنه يسمع نشيداً صعيديـًّا ينشدونه عندما يعبرون النيل ، ولكن تغنيه أصوات ملائكية من عالم آخر . . .

وأفاق على صوت مصر يخاطبه ؛ ونظرها مثبت فى وجهه ، وهى تقول : « أظنك تبكىَ . . »

ـــ الرجال لا يبكون . . وأنا ما بكيت فى حياتى قط . .

ـــ ولكن دموعاً تترقرق فى عينيك، وأنا أراها فى شعاع الشمس . .

ـــ أحياناً عندما أفكر فيك تنهلّ دموعى ، ولكننى لا أبكى . . فى حياتى ما عرفت ماهو البكاء . .

ـــ وأنا أيضاً لا أحب الرجل الباكى .. الدموع ليست للرجال .. كان أبى يقول إنه لم يبك فى حياته إلا مرتين : يوم مات الشهيد حمزة فى مظاهرات القاهرة ، ويوم ماتت أمى . .

ـــ كان رجلا . . هو أيضاً كان والد الكل ، وكان يعيش من النظر إلينا . .

وقال المراكبي الشاب : « وصلنا . . »

وانتظر حتى رسا القارب ، ثم قفز فى خفة الغزال إلى الشاطئ وجذبه فى قوة ، وقفز من خلفه عبد الرحيم ، ثم أخذ بيد مصر فخطت على الأرض وقالت : « لم نر الدوامات . . »

ـــ سرنا بعيداً إلى جنوبها . . . لا يحسن الاقتراب منها فى الليل .

ـــ لابد أن نراها فى العودة . .

ـــ طبعاً . . سنعود بعد صلاة الجمعة . .

وأقبل شابان فألقيا التحية فى صوت خافت، وقبّلا يد الست الطاهرة، وقال واحد منهما لعبد الرحيم : « الرجال يتدربون منذ الفجر . . »

ــ هنا لن يعترضكم أحد . هذه أرض الفوال . .

فقالت مصر : « سافر صلاح ؟ . . »

ــ نعم . أعطانا هذه الأرض لنستعملها الآن . كان هنا منذ أيام هو وزكى ومصطفى بدر وفوزى وإخوانهم . . عادوا ليستعدوا لامتحاناتهم وسيكونون هنا من جديد فى الصيف . . لقد وضعوا لنا خطة العمل لمدة شهر ونصف ثم مضوا . .

وهمس فى أذن عبد الرحيم : « تسلمنا السلاح والذخيرة . . »

ــ للكل ؟ . .

ــ تقريباً . .

ــ كفتكم النقود ؟

ــ مازال لدينا منها شىء . .

وساروا فى صمت . كانوا أربعة : الطاهرة وعبد الرحيم والشابان . . ولكن وقع أقدامهم فى تباشير الصباح كان لا يكاد يسمع . لقد علمهم عبد الرحيم أن الصمت هو سلاح النصر الأكبر . . الصمت ، والعمل فى هدوء ، والحركة فى خفة . . هنا لا يتكلم الناس إلا بالضرورى ، ولا يتنادون ولا يتصايحون . .

بعد قليل كانوا وسط المعسكر . أكواخ كثيرة تحت النخل ، وشباب يروح ويجىء فى نشاط . هنا وهناك جماعات من الشباب يستمعون

إلى معلم منهم يشرح لهم فى صوت خافت كيف يقومون بالتدريبات البدنية الشاقة . الجسد سلاح المقاتل كما قال لهم صلاح الدين ، وقبل أن تمسك بالسلاح لا بد أن يكون جسدك قادراً على حمله واستعماله والسير والقفز والزحف والسباحة به . تمرينات شاقة يقوم بها أولئك الشبان . إنهم يستعدون لمعركتهم . بيوتهم ما زالت فى مواضعها فى الأرض التى يدبر الغاصبون طردهم منها ، ولكنهم يستعدون من الآن للذياد عنها إذا هاجمهم العدو . هذه الأرض التى يتمرنون عليها ملك للحاج حسنين الفوال ، وابنه صلاح أعطاهم إياها . إنها أرض نخل كثير ، يختفى المعسكر بين جذوعه تماماً .

ورآها شاب كان يمرن جماعة من إخوانه على استعمال السلاح ، فاستأذنهم وأقبل فحياها وقال : «ما كان ينبغى أن تأتى إلى هنا ياسيدتى ..»

— بالعكس . . إننى أفكر فى أن أنتقل إليكم وأعيش معكم . .

— ينبغى أن تكونى دائماً فى مأمن . .

— لا أرضى أن أكون فى مأمن وأولادى فى خطر . .

— نحن لسنا فى خطر . . مادمنا على أقدامنا فلسنا فى خطر . .

— سأرسل إليكم آدم . .

— لا ياست . . إنه مازال صغيراً . .

— فى هذه المعركة لا صغير ولا كبير ..! . إن الموت يتهددنا جميعاً . .

— ولكن الصبيان لا يقاتلون . .

– إذا لم يوجد الصبى المقاتل فلا وجود للرجل المقاتل . . الحرب روح وجو وحالة ، ولا يمكن أن ينام شاب فى سرير دافئ طول الليل ثم يخرج إلى الحرب فى الصباح كأنما هو ذاهب إلى مكتب . . ينبغى أن تعيش الجماعة كلها فى معسكر حتى تكون فى جو الحرب . .

وقال عبد الرحيم : « لهذا حرمنا على الرجال الإصغاء إلى الراديو ، لأن الأغانى المائعة تنافى روح الحرب ، وتضعف معنوية الشباب ، وتميل بهم إلى الرقة والنعومة والبكاء والحنين . . أنا لا أحب هذه الأغانى أبداً . . »

فقالت مصر : « إنها ليست أغانى مصرية على أى حال .. لا أدرى من أين أتوا بها . . إنها سم وضعف ، ولا أرضى لابنى أن يسمعها .. أريد أن يغنى قومى أغانى الرجال . . كلام رجال فى نغمات رجال تنشد على وقع طبول الحرب ، لا على نقر الدربكة ولا دغدغة العود .. »

قال عبد الرحيم : « قاتل الله العود . . إنه عجوز خليع . . »

فقالت : « أنا لا أحبه ولا أحب الناى الجريح . . »

– ولكنها موسيقانا . .

– أبداً . هذه ليست موسيقانا . . إنها موسيقى الجنائز . . غنتها وعزفتها النوادب فى جنازة آخر الفراعنة ، والمأتم لم ينته بعد . .

– لا بد من موسيقى جديدة . .

– لا بد من كل شىء جديد . . أحياناً أحس أننى ألبس أسمالا بالية من الرأس إلى القدم . . وأنا لا أحب الأسمال ولا الفقر . .

ــ من ياسيدتى يحب الفقر ؟ . .

ــ أكثر مما تتصور . . هناك من يعشقونه . .

ــ يحبونه لغيرهم لا لأنفسهم . . انظرى إلى هؤلاء . .

وأشار إلى بعض الرجال يتدربون . .

ــ هؤلاء ليسوا فقراء . . إنهم رجال يعملون بأيديهم ليكسبوا . . إنهم أعداء الفقر . . لا بد أن نطرد الفقر من بلادنا . .

ــ إنه لن يخرج . . إنه جزء من الجدار نفسه . .

ــ فليهدم الجدار . . إذا صممنا على أن نتخلص من الفقر تخلصنا منه . . دواؤه يسير جدًّا . . العمل . . هؤلاء الرجال هم دواؤه . . لهذا أريد أن يأتى آدم ليعيش معهم . .

ــ ليكن ماتريدين . .

ــ ولكن آدم لا يريد أن يأتى بدون ريحان . .

ــ ونحن هنا فى حاجة إلى ريحان . .

ــ متى تريدون أن يأتى إليكم ؟

فقال عبد الرحيم : «آدم سينام فى كوخى ، وسأبنى خلفه مأوى لريحان . . »

ــ نعم ، أحب أن يكونا دائماً تحت إشرافك أنت . .

ــ هما فى عينى . .

ثم ساروا فى بطء حتى وصلوا إلى كوخ عبد الرحيم وسط النخيل ، وهناك وجدوا أم خالد زوجة عبد الرحيم فى انتظارهم وقد أعدت الشاى

وشيئاً من الطعام ووقفت ووجهها الأسمر الوسيم يبتسم ، وأقبلت فعانقت مصر وقالت : « زارنا النبي . . »

وقال عبد الرحيم : « لها أيام مقيمة هنا فى انتظارك . . »

فقالت الطاهرة : « وأين خالد ؟ »

— مع الرجال يتدرب . . إنه يحسب نفسه الآن ضابطاً كبيراً . .

— المهم أن يكون مقاتلا عنيداً . .

— من هذه الناحية اطمئنى . . إنه لا يتزحزح عن مكانه أبداً . . وإذا أمسك البندقية ماتت يده على الزناد . . لو رأيته ياسيدتى وهو يقفز كالفهد وينظر كالصقر ، وهو ثابت كالصخرة . . وشفتاه لا تنفرجان أبداً . . صلاح الدين يقول إنه ولد مقاتلا . .

فقالت مصر : « الرجل يولد فى العادة ليكون مقاتلا ، ولكن التربية السيئة تفسده . . إذا ربينا أولادنا ليكونوا مقاتلين فسيكونون مقاتلين . . ولكنك لن تصنع مقاتلا من إنسان يقول إن الحب يكويه أو أنه دايب من الحب . . فالمقاتلون — فيما أعرف — حديد يَكوى ولا يُكوى ، وصخر ينحدر عليه الماء ولا يذوب . . هؤلاء كانوا دائماً الرجال الذين بنوا بلادى . . أنا فى حاجة إليهم الآن ليعيدوا بناءها . . »

كانوا يتحدثون والشمس تعلو فى الأفق ، والرجال يعملون تحت بصرها فى نشاط وحيوية ، وعبد الرحيم ينظر إليهم بعينى نسر ، ثم تقدم وصاح : « كفى يارجال . . استريحوا قليلا . . تعالوا نشرب الشاى مع الست الطاهرة . . »

وفى صمت ونظام أقبلوا وجلسوا ، وأخذ واحد منهم يصب الشاى . .

وقالت وفى عينيها فرح عميق : « كم أحب الذين يعملون فى صمت .. الصمت صلاة . . »

— هكذا تعلمنا منك . .

— ومتى نرى الرجال لنناقش الموضوع ؟

— الآن . . بعد الشاى . .

وشربوا الشاى ، ثم نهض معظمهم وخرجوا ، وبقى ثلاثة وعبد الرحيم . . قام فأغلق الباب ، ثم جلس وقال : « مسعد وكمال وصادق يريدون أن يكلموك باسم إخوانهم . . »

— لهذا أتيت . .

— تكلم يامسعد . .

— ياست ياطاهرة . . نحن نريد أن نقاطع المصيف هذا العام . .

— لماذا ؟

— لأن هؤلاء الناس يريدون أن يستغلونا لحسابهم ، ونحن لا نقبل . هذا العام اشتروا لنشين كبيرين لنقل المصطافين من دمياط إلى رأس البر.

— وهل هذا يقضى على قواربكم ؟

— يقضى على نصف العمل ...

— معنى ذلك أنكم تريدون أن تتركوا الميدان لهم تماماً . .

— بدوننا لن يستطيعوا تسيير العمل . .

— بل يستطيعون . . يأتون بعمال من الخارج . .

ــ نضربهم . .

ــ هذا لا نريده . . لا نريد أن يضرب عمال عمالاً وهم يتفرجون . .

ــ ما العمل إذن ؟ . .

ــ من الذين سيقودون اللنشين ؟

ــ نحن الثلاثة ميكانيكيون . .

ــ إذن نشترى لكم لنشين . .

فقال عبد الرحيم : « ثمنهما لا يقل عن ١٥ ألف جنيه . . »

ــ مبلغ كبير على رجل واحد . . ولكنه قليل على أربعمائة . . كل منكم يدفع ثلاثة جنيهات ، وأنا أدفع الباقى . . وتعملون شركة تعاونية ونقوم بالعمل معاً . . لا بد أن نتعلم كيف نعمل معاً . . هل تستطيع أن تشترى لنا اللنشين ياعبد الرحيم ؟

فقال مسعد : « ممكن جداً . . »

ــ إذن تأتون أنتم الثلاثة غداً إلى بيتى وندرس التنفيذ .. ستكون معهم ياعبد الرحيم . . أهم شىء ألا تنبسوا بحرف . . سلاحنا الأكبر ألا يعرف العدو ماذا نعمل . . هذا نصف النصر . .

* * *

ملأ لنفسه كأساً وجلس على أريكة وثيرة فى الصالون الفخم ثم قال :

ــ أظنه قد غرق الآن . .

ــ نعم ، ولكن لا بد أن يهبط إلى القاع . . لا أريد أن يطفو مرة أخرى . .

ـ إذن مزيداً من الخمر . . ومزيداً من المال . . أظنه لا يرفض المال الآن . .

ـ مادام قد مد يده مرة فسيظل يمدها دائماً . .

ـ الحياء نسيج رقيق جداً . .

فضحكت وقالت : « أنت تعرف أكثر من غيرك كم هو رقيق نسيج الحياء . . »

فقال وكأنه لم يسمع : « أريد أن أعرف أين تحتلين به . . »

ـ فى أى مكان . . وفيم يهمك المكان ؟ . .

ـ أخشى أن يموت مرة بين يديك . .

ـ الميت .. كيف يموت ! ؟ .

* * *

ـ أعتقد الآن أنه لن يطفو . .

ـ غاص إلى القاع ؟ . .

ـ بلا أمل . .

ـ إذن لا تضيعى الوقت . .

ولم ترد . نظرت من النافذة وأرسلت بصرها عبر النيل إلى الضفة الأخرى ، على مدى البصر ، ووسط البيوت المتراصة كأنها جدار من حجر ، بدا بيت صغير من الطوب الأحمر هو بيت غريمتها الست الطاهرة ، أو هى توهمت أنها تراه .. ورفعت شعرها عن جبينها وأشعلت سيجارة ، ثم هزت رأسها كفرسة نافرة وقالت : « أيام . . لم يبق لك إلا أيام.. »

. . .

فى صمت وهدوء تم شراء لنشين قديمين مما تستغنى عنه شركة القنال ، وقام مهندس هناك بإصلاحهما وإعدادهما ، فأصبحا فى ثلاثة أسابيع قاربين بخاريين فاخرين ، لا يقلان عن أى لنشات يمكن أن يشتريها أصحاب الشركة التى تريد أن تذل هؤلاء الرجال الطيبين بمالها . . تغلبوا عليها بالتعاون والعمل والصمت والجد الخالص فى الأمر . وسافر كمال إلى القاهرة واجتمع بزكى شنوده طالب التجارة ، فوضع لهم عقد الشركة ونظامها ، واستعان بأبيه الأستاذ بولس شنوده المحامى الكبير ، الذى عرض بسرور أن يكون محامى الشركة ومستشارها القانونى . من أجل عيون زكى ، كما قال .. فرد عليه ابنه وهو يبتسم : « بل من أجل عيون مصر يا أبى .. »

— أجل ، عيون مصر يازكى . . أجل ، عيونها الحلوة . . وهل لنا غيرها ؟ . . .

فقال زكى وبصره سابح فى الفضاء : «لو رأيتها يا أبى .. لو رأيت جبينها الناصع الجميل . . لو رأيت عينيها لعبدتها كما كانوا يعبدون إيزيس . . »

— تحبها يازكى ؟ . .

فهز الشاب الأسمر الوسيم رأسه فى إيجاب ولم يقل شيئاً . .

وأتموا كل شىء فى نشاط وحماس قبل أن يبدأ موسم رأس البر أنشأوا لأنفسهم مرسى خاصًّا على الشاطئ قرب محطة سكة الحديد ، واستقبلوا الناس وقاموا بخدمتهم فى نظام وجد . . ثم أقبل الموسم وتدفق

الناس على المصيف ، وعمل الرجال كما لم يعملوا فى سنة سابقة : زاولوا صيدهم وباعوا ما يسر الله لهم ، ونقلوا إلى المصيف المصطافين القادمين من نواحى القطر والآخرين الذين يذهبون إليه من دمياط . وقامت جمعيتهم بتنظيم العمل لهم هناك ، فاشتغل الكثيرون منهم بالتجارة ، وفتحوا محلات صغيرة جميلة للطعام والمثلجات وبيع أدوات الصيف والصحف وكل ما يحتاج إليه المصيفون .وفرغ صلاح حسنين ومصطفى بدر وزكى شنوده وفوزى عبد الرحمن من امتحاناتهم ، وأقبلوا إلى القرية ليعاونوا إخوانهم ، فأنشأوا إدارة جديدة منظمة ، فتضاعف كسب العمال جميعاً وزاد على ما كسبوه فى أى سنة سابقة . .

ولم يتوقف التدريب والاستعداد لمابعد الصيف. فى صمت وهدوء ونظام ، سار التدريب فى المكان البعيد الذى اختاروه . وتم إنشاء أكواخ صغيرة للصيادين فيه ، وأقام أولئك الشبان المتعلمون مركزاً لتعليم الأطفال ، وسار كل شىء كما ينبغى أن يسير . .

وقالت الست الطاهرة : « ما أحسن أبنائى عندما يخلص بعضهم لبعض ويتحدون فيما بينهم ! . . هنا لايغلبهم أحد . . »

وقال عبد الرحيم : « هكذا عرفتهم فى أيامهم الأولى ، أيام قاموا وحدهم بتحويل الأرض كلها من غابة للوحوش إلى دار للبشر . .

— وهل أصبحت فعلا داراً للبشر ؟ . .

— لا أدرى . . وربما كنا مسئولين عن ذلك . .

— ياسيدتى . . هذه مسئولية ضخمة تحملينا إياها . »

– لكل بلد على هذه الأرض مسئوليته ، ومسئولية مصر تحددت منذ البداية ، مسئولية هداية وتوجيه وريادة . . وهذا كان يقتضى عملا ضخماً كالذى قامت به أجيالنا الأولى . . ولكننا تراخينا ونسينا واجبنا . . عدوّنا الأول الإهمال والتراخى . . إننا ننسى دائماً أننا شعب كبير . . انظر إلى هؤلاء الرجال . . لقد استيقظوا وفتحوا أعينهم واتحدوا وأقبلوا على العمل واستعدوا للقاء الموت دفاعاً عن أنفسهم وحقوقهم . . برجال كهؤلاء تسترد مصر حجمها الطبيعى فى عالم البشر . .

• • •

الفلوكة تمضى فى الماء كالسهم المارق ، وذراعا عبد الرحيم القويتان تشدان المجدافين فى قوة وعلى وقع رتيب منتظم . ليس فى القارب غيره والست الطاهرة . كانا فى زيارة لمواقع الرجال على الضفة الأخرى . إنهما صامتان ، وقد سبح كل منهما فى بحر من الأفكار : أرضهم ومستقبلهم والمعركة . .

وبعد قليل نظر إلى الماء طويلا ، ثم عاد يجذف ، وسمع الاثنان لغط مياه تتدافع وتتلاطم ، وتراخى عبد الرحيم فى تجذيفه ثم وقف والمجدافان فى يديه وقال : « هذه هى الدوامات . . »

ونظرت إلى تلك الطاحونة المائية الرهيبة . . الماء يفور ويغور ويدور فى عنف حول ما يشبه أن يكون ثقوباً واسعة ، كأن فى وسط النهر آباراً ينصب فيها الماء بقوة وعنف . . وكل شىء ينجذب من بعيد نحو

هذه الطواحين القاتلة ويدور مع الماء ويختفى فى ثوان قليلة . .

وقال عبد الرحيم : « هذا إنذار من الله .. يقولون إن فى جهنم وادياً كله دوامات ، ولكن مياهه تغلى ، والأشقياء يغوصون إلى القاع ثم يردهم الله إلى سطح الماء ، ليغوصوا مرة أخرى . . »

ـ لا بد أن هنا بئراً تحت السطح تجعل الماء يفور ويدور حول نفسه على هذه الصورة . .

ـ ربما . . ولكنى سمعت ناساً يحكون حكاية تقول إن هذا هو المكان الذى غرق فيه عدو مصر الذى أراد أن يقتل شمايل . .

ـ قص علىّ أبى هذه القصة ، ولكنى نسيتها . . هل تذكرها أنت كلها ؟ . .

ففكر عبد الرحيم بعض الوقت ، ثم أمسك بالمجذافين وأخذ يجذف مبتعداً عن موقع الدوامات فى طريقه إلى القرية وقال : « كان ذلك فى أثناء حرب طويلة بين أوربا ومصر . . يقولون إن أوربا كلها تجمعت وحشدت قواها ، وأتت لتستولى على مصر ، يقود جيوشها ملك اسمه لويس كان معه مائة ألف فارس وخمسة آلاف سفينة . . نزلوا بشاطئ دمياط ، وكان عليها أمير اسمه فخر الدين خرج إليهم ومعه قوة كبيرة من المماليك . وعندما رأى ذلك الأمير جيش العدو خاف ، وفكر فى تسليم البلد للأعداء ، فرفض أهل دمياط ذلك وقرروا الدفاع عن بلدهم ، فما كان من الأمير الجبان إلا أن انسحب بمن معه من الجند ، وقام أهل دمياط يدافعون عن بلدهم بأنفسهم ، فأغلقوا

أبوابها وقاموا يحاربون من أعالى الأبراج والأسوار . .

وحاصر العدو المدينة من كل جانب ، واشتد القتال . .

وتجمع المصريون من نواحى شربين وفارسكور وبلاد شمال الدلتا وقرروا إمداد أهل دمياط . ولكنهم لم يستطيعوا كسر الحصار المضروب حول البلد ، واضطروا إلى الوقوف إلى جنوب دمياط انتظاراً لفرصة الهجوم .. ولم تستطع رسلهم الاتصال بأهل البلد المحاصرين ليعرفوا أخبارهم وليطمئنوهم على أن أهل مصر يتجمعون لاقتحام الحصار وإنجادهم . .

ولم يجرؤ قارب على أن يسير فى النهر ، لأن قوات الأعداء كانت بالمرصاد على الشاطئ لتمطر أى سفينة أو أى سابح بوابل من السهام . .

وهنا ظهرت شمايل . فتاة صغيرة جميلة كأنها عروس بحر . .

قامت بحمل الرسائل ما بين دمياط المحاصرة وبقية المصريين الذين كانوا مستعدين لعونهم . .

كانت تسبح تحت الماء تارة وفوقه تارة ، والرسالة فى علبة من النحاس معلقة برقبتها ، وسهام العدو تتساقط حولها كالمطر . . ولا تزال على ذلك حتى تصل إلى سور دمياط من ناحية البحر فتتسلقه بدون أن يراها أحد من الأعداء ، وتدخل البلد وتؤدى الرسالة إلى أهلها فيزدادون صموداً . .

أسابيع طويلة وهى تفعل ذلك .

وكانت رسائلها تلك هى التى تقوى عزم المحاصَرين وتطلعهم على الخطط التى يرسمها إخوانهم من بعيد . .

وتزايد غيظ الأعداء منها ، وحاول بعضهم اللحاق بها بدون جدوى . .
وأخيراً قرر جماعة منهم انتظارها فى قارب قرب الشاطئ . .

وظلوا يرقبونها حتى طلعت إلى سطح الماء لتأخذ نفسها فطاردوها . .

ستة رجال يجذفون بأذرع من حديد . .

وأربعة منهم يقفون فى القارب بالأقواس مشدودة بالنبال . .

ويطلقون . . ويطلقون . .

وتختفى شمايل تحت الماء . . ثم تطفو سابحة . .

أخيراً تعبت . . واقتربوا منها . .

كان هذا هنا . . فى مكان الدوامات . .

وعندما ضاق نفسها تحت الماء أخرجت رأسها وقالت : « يارب مصر . .
أنقذ مصر . . معى رسالة لأهل دمياط . . ولا بد أن أوصلها . . »

ولم يبق بينها وبين قارب الأعداء غير بضعة أمتار . .

وهنا فارت الدوامات فى الموضع الذى كان فيه القارب فابتلعته بمن
فيه . رب مصر . . أنقذ مصر . .

وطفت شمايل على سطح الماء . . وقالت : شكراً لك يارب . .

وصلت لله صلاة صامتة ، وهى تضرب بيديها الرقيقتين فى الماء
متجهة إلى دمياط . .

وأحست وهى فى طريقها إلى البلد المحصور كأن عشرات من عرائس
النيل يرافقنها ويغنين لها نشيداً جميلا حلوا . . »

ونظر عبد الرحيم إلى الطاهرة وقال : « ست يا طاهرة . . »

وأفاقت . . كأنما أخذتها قصته إلى عالم بعيد . .

وظلت صامتة واجمة . . فى حين كان مجذافاه يضربان فى الماء بهدوء . .

ونظر إلى جانب وجهها . . ورأى أشعة الأصيل تلمع فى دمعة انهلت على خدها . . وهتف لنفسه : « شمايل . . هذه شمايل . . »

* * *

على عتبة البيت وقف متردداً . .

رآه بعض الفلاحين الذين يعملون فى أرض الست الطاهرة ، فتعجبوا لرؤيته داخلا، ولكنهم لم يقولوا شيئاً، فهو – برغم ما تسامعوابه – مازال زوج الست الطاهرة ، وهذا بيته ، ومن حقه أن يدخله . .

ولكنه هو نفسه وقف متردداً ، فقد كان غير واثق من أن هذا بيته . .

لقد حطم أشياء كثيرة كان هذا الزواج يقوم عليها . .

منذ أن اختصم معها وخرج انطلق فى استخفاف وأنانية فى طريق الغواية . ظن أنه يصل إلى القوة والمال . .

جرى ولعب وعبث ، ومد يده إلى المال ، وانفصل بذلك عن الشجرة الزكية التى يطلع منها كل الناس الطيبين هنا . .

ولم تقل الست الطاهرة شيئاً . .

أصيلة وصابرة وكريمة وحرة ، تصرفت بحسب أصلها . .

لم يعلم بمأساة نفسها أحد إلا – ربما – حليمة . . فقد كانت تفرج عنها ما يعذب قلبها بكلمات قليلة هنا وهناك . .

وكان عبد الرحيم يعلم الكثير ، ولكنه لم يسمح لنفسه أبداً بأن يطرق الموضوع مع الست الطاهرة . .

كان دائماً يسائل نفسه : « ترى هل تعلم ؟ . . »

وكان إسماعيل أيضاً يضع لنفسه السؤال نفسه : « هل تعلم ؟ . . »

كان أمله الوحيد أن تكون غير عالمة بشيء . .

وفاجأه صوت يقول فى جفاف : « الست ليست هنا . . »

فقال محاولا إخفاء ارتباكه : « أريد أن أرى آدم .. اشتقت لابنى ... »

ــ منذ متى تشتاق لابنك ؟ . .

فقال فى تواضع وانكسار مفتعلين : « إنه ابنى ياحليمة . . وقد اشتقت إليه كما يشتاق كل أب إلى ابنه . . »

فتركته ومضت لشأنها ، فناداها : « حليمة ! »

ولم تلق إليه بالاً ومضت . وبقى وحده . .

وأحسّ بالمهانة تغمره . .

ومن بعيد رأى ريحان يرعى ، فأراد أن يتحبب إليه واقترب منه ، ولكن الحصان نفر منه وصهل فى غضب . .

وسمعت الست الطاهرة صهيل الحصان من بعيد ، فأقبلت . . واتجه بصرها ــ بقوة الغريزة ــ نحو زوجها . . وأمسكت بالحصان ومرت بيديها على وجهه ورقبته ، وسارت به نحو مربطه . .

وشعر إسماعيل بأنه يذوب مهانة وخجلا . .

ولكنه ضغط على نفسه وسار نحوها وهو يتلفت حوله ليتأكد من أن

أحداً لا يراه .. ووقف خلفها على مسافة منها ، وقال : « لا تريدين أن تريني ؟ . . »

فمضت تمر بالفرشة على ظهر الحصان ولم تقل شيئاً، وعاد يقول . « لاتريدين أن تكلميني ؟ . . »

فقالت بدون اكتراث : « أظن أنك أتيت لترى ابنك . . »

– هكذا قلت . . ولكن الحقيقة أنني أريد أن أراك أنت . . .

– على أى حال ، ابنك ليس هنا اليوم . .

– أين هو إذن ؟

– ليس من حقك أن تعرف . .

– ألست أباه ؟

– الأبوة ليست لقباً ، وإنما هى وظيفة . . لقد تركته الآن ثلاثة أشهر متوالية . .

– كنت مشغولا . .

– كل الآباء مشغولون . . ولكن أولادهم هم شغلهم الأول . .

– هل معنى ذلك أننى لا أستطيع أن أراه ؟ . .

– لم يقل أحد ذلك . . ولكن أولادنا ليسوا تسلية نراهم عندما نريد ونهملهم إذا شئنا . . آدم له حقوق ، وقد تنازلت عنها فتوليتها أنا . .

– لا مانع عندى من أن تتوليها أنت . . ولكن غيرك لا . .

– أنا لا أترك ابنى لغيرى . .

ــ عبد الرحيم مثلا . .

ــ عبد الرحيم لا يربى ولدى ، إنه رجل مخلص يرعاه ويرعانا كلنا . .

ــ وهل أنتم فى حاجة إلى رعاية ؟ . .

ــ نحن فى حاجة إلى أى رجل شهم يقف معنا . .

ــ وماذا يعمل ذلك الرجل الشهم ؟ . .

ــ على أى حال ، لا يعمل ما تعمله أنت . .

ــ وماذا أعمل أنا ؟ . . ماذا قالوا لك ؟ . .

ــ لست فى حاجة لأن يقول لى أحد شيئاً . . إننى أرى بنفسى . .

ــ وماذا رأيت ؟ . .

فحركت العناية بالحصان والتفتت نحوه وقالت : « أنت تعرف ماذا أرى وماذا يراه غيرى . . أنت تعرف تماماً ماذا أعنى . . »

ــ إننى لا أعمل شيئاً سيئاً . . ! إننى أجرى وراء رزقى . .

ــ على حساب إخوانك جميعاً وحقوقهم ؟ . . ألست تدرى ماذا يدبرون لنا ؟ . .

ــ لا تصدق ما يقال ، إنهم لا يريدون بهم شرًّا . .

ــ وأرضهم التى يريدون أخذها ؟ . . وأرض أبى ومسجده هناك على الضفة الأخرى ؟ . .

ــ لن يمسها أحد بسوء . .

ــ هى قالت لك ذلك ؟ . .

– نعم . . وأنا أعمل معهم لكى أحول دون وقوع أى أذى على أرضنا . .

– هل تظن أنك تخدعنى بهذا الكلام ؟ . .

– أنا لا أخدعك أو أخدع أحداً . . أنا واحد منكم أسعى لرزقى . .

– وهل الجرى مع امرأة فى البحر ، والنزهة معها طول اليوم ، سعى وراء الرزق ؟ . .

– للرزق أحكامه . . وأنا آخذ ما يعطينى الله . .

– وماذا أعطاك الله ؟ . .

– شيئاً من المال رزقاً لى ولابنى ولامرأتى . . إننى لا أفعل شيئاً حراماً . .

– اسمع يا إسماعيل . . إننى أعرف أنك تكذب . . وأنت أيضاً تعرف . . ليس لدىّ وقت أضيعه معك .. اختصر الطريق وقل لى : ماذا تريد ؟ . .

– لا تغضبى علىّ ، ولا تسيئى الظن بى . . أنت زوجتى وتعرفيننى جيداً . .

– أجل أعرفك ، ولهذا أرجو أن تكف عن محاولة الخداع . .

– فى حياتى لم أخدعك . .

– إذن فأنت لا تدرى ماذا تفعل . .

– بل أدرى تماماً ماذا أفعل . . وأعرف أننى لم أرتكب خطأ فى

حقك ولا فى حق آدم . . لماذا أرفض العمل عند امرأة تحتاج إلى مراكبى وسائق لنش ؟ . . ماذا يمكن أن يكون فى ذلك من الضرر ؟ . . أين أنا وأين هى ؟ . .

— نعم ، أريد أن أعرف أين أنت وأين هى ؟ . .

— أنا صياد سمك ومراكبى . . وهى امرأة غنية جداً . .

— ولماذا تزورها فى قصرها وتقضى معها الساعات . .

— صدقينى لا يحدث بيننا شىء . . إننى واحد من كثيرين يعملون عندها . .

— وكل الذين يعملون عندها يأخذون منها مالا كثيراً مثلك ؟ . .

— من قال إننى آخذ مالا كثيراً ؟ . .

— كل البلد تعرف . . وإذا كانت هى لا تتكلم فإن شركاءها يتكلمون . .

— إنها ليست شريكتهم . . إنها الوحيدة التى تقف معنا . .

— إذن فأنت مخدوع ولا تفهم شيئاً . .

— لست مخدوعا . . إننى أفهم كل شىء . . إننى أفهم تماماً ماذا أعمل ، وثقى أننى لم أرتكب خطأ فى حقك أو فى حق آدم . .

— وماذا تريد الآن ؟ . .

— أريد أن تصدقى ذلك . .

ثم قال فى مسكنة : « إننى دائماً مظلوم معك . . أنت تسيئين الظن بى مع إخلاصى الشديد لك . . تذكرى كيف كنت تعاملينى فى بيتى . .

لقد طردتنى من بيتى ، فماذا أعمل ؟ . . »

ـ أنا طردتك ، أم أنت خرجت بنفسك غاضباً ؟ .

ـ خرجت بعد أن طردتنى . . ثم إننى كنت غاضباً ، وقد أكون أسأت الكلام . .

ـ هذه ليست أول مرة . . أنا معك فى تعب منذ تزوجنا . . تعبت من لعبك وعبثك وجريك مع السكارى فى مقهى شريبة . . سئمت هذه الحياة السخيفة التى أعيشها معك . . ثم جريك مع هذه المرأة . . كيف تتحمل زوجة ذلك ؟ . .

ـ قلت لك إنه لم يحدث شىء مما تظنين . .

ـ إن الموضوع لم يعد موضوع خلاف زوجى بينى وبينك . . إنه أصبح خلافاً أساسيا بينك وبين أهل هذا البلد . . أنت مع أعدائنا ، وليس من حقك أن تدخل أرضنا . .

ـ أنا الآن أتحدث مع زوجتى . . دعينا جانباً من أهل البلد ، فأنا أستطيع أن أرتب أمورى معهم . . الذى يهمنى الآن هو أنت . . أريد أن أعود إلى بيتى وأبدأ من جديد . .

ـ هذه ليست المرة الأولى التى تقول فيها ذلك . .

ـ ربما . . ولكنها الأخيرة قطعاً ، وأنا أطلب منك الصفح .

ـ لم يعد للصفح مكان بعد أن دخلت بيننا امرأة . .

ـ لم يدخل بيننا أحد . . صدقينى . . إننى مظلوم وكلام الناس

كثير

— هؤلاء الناس يعرفونك جيداً . . وهم لا يدّعون عليك شيئاً . . إنهم على أبواب معركة ليستعيدوا حقوقهم ، وهم يرونك فى الناحية الأخرى . .

— إنهم مخطئون ، وسأوضح لهم موقفى . .

— كيف تشرح لهم حقيقة ما بينك وبين هذه المرأة ؟ .

— إنها معهم ، وهى مستعدة للمجىء إلى هنا لتؤكد لك ذلك . .

— لا أريدها فى بيتى . .

فقال وقد رفع صوته فى ضيق شديد : « إذن ماذا أعمل ؟ . . أقول لك إنها تريد أن تأتى إليك لتؤكد لك أنها ليست مع الآخرين . . صدقينى أنها ليست شريرة . . كيف أثبت لك ذلك ؟ »

— لا أدرى . . كما قلت لك . . الموضوع الآن ليس موضوعى . . إنه موضوع هذا البلد وأهله . . قل لهم أنت وانظر كيف يردون عليك . .

— يهمنى أن تصدقينى أنت أولا . .

— لم يعد هناك أى معنى لأن أصدقك أو لا أصدقك . .

— لا بد أن تصدقينى . .

فسكتت لحظة طويلة ، واستدار ليمضى .. فنادته قائلة : « وهذه المرأة ، ماذا تريد منى ؟ . . »

تريد صداقتك . . .

— ومنذ متى تريد مثل هذه المرأة صداقة مثلى ؟

ـ هذا ما قالته لى ، وقد رجتنى أن أتوسط بينك وبينها . . لماذا ترفضين اليد التى تمتد إليك ؟

فصمتت لحظة ، ثم قالت : « دعنى أفكر . . »

فتوقف مكانه ثم قال : « هل أستطيع الآن أن أدخل البيت لأغتسل ؟ . . »

فقالت بدون اكتراث : « ادخل إذا شئت . . »

ودخل البيت . . ووقفت هى تفكر . . وهنا ظهر عبد الرحيم فاقترب منها وقال :

ـ أنا لا أريده أن يدخل البيت .

ـ وماذا يمكنه أن يفعل ؟ . .

ـ كثيراً جداً . . إننى غير مطمئن . . لا أريده أن يدخل غرفة آدم . .

ـ لماذا ؟ . .

ـ هناك أوراق الأرض فيما أظن . .

ـ ولكنه لا يعرف . .

ـ إذا كنت أنا أعرف ، فلا بد أن جميع الناس يعرفون . .

ـ إذن ماذا أعمل ؟ . . لا أستطيع أن أطرده . .

ـ المهم ألا يدخل غرفة آدم . . قلبى يحدثنى أنه يريد أن يجوس هناك . .

وهنا أقبلت حليمة تقول : « عم عبد الرحيم على حق . . »

ــ إذن فاذهبي وادخلي غرفة آدم وأغلقيها من الداخل . .

وذهبت حليمة مسرعة ، وقال عبد الرحيم : « هل قلت له أين آدم ؟ . . »

ــ لا . . لم أقل شيئاً . .

ــ حسناً . . ينبغي ألا يظل طويلا داخل البيت . .

ومضى عبد الرحيم ، وبعد قليل أتت حليمة وقالت إنها أغلقت باب غرفة آدم ، وقالت إن إسماعيل يغتسل حقّاً . . ثم قالت : « ما كان ينبغي أن تفتحي صدرك له مرة أخرى .. إنه رجل غدار ، والغدار لا يؤمن أبداً . . إنني أعرف الرجال جيداً . . وأنت ياسيدتي طيبة القلب . . »

ــ إنه زوجي ياحليمة . . ماذا تريدين مني ؟ . .

ــ مازلت تحبينه . . برغم كل شيء . . مازلت تضعفين أمامه . .

ــ أنا لم أضعف . .

ــ أنت أعرف بإحساسك . . ولكني أحذرك من قلبك . .

فقالت في حيرة : « ماذا أعمل ياحليمة ؟ . . ماذا أعمل ؟ . . »

ــ لماذا أنت طيبة القلب هكذا ؟ . . لماذا لا تخرجينه من قلبك دفعة واحدة ؟ . .

ــ لو أعرف يقيناً أنه خانني . .

ــ على أي حال . .ليكن شعورك ما يكون ، ولكني لا أشعر باطمئنان مادام هذا الرجل هنا . .

وفى هذه اللحظة خرج إسماعيل من البيت وأقبل نحو الست الطاهرة وقال : « لا تتصورين شعورى عندما عدت إلى بيتى . . إننى أشعر بندم شديد . . أرجوك أن تصفحى عنى .. أريد أن أعود إلى بيتى . . »

فقالت حليمة فى غضب : « والمرأة الأخرى ؟ . . »

فقال فى رجاء : « لا تظلمينى ياحليمة .. أنت كنت دائماً فتاة طيبة.. ماذا جرى لكم ؟ . . ماذا فعلت معكم ؟ . . »

فقالت مصر : « لا داعى لهذا الكلام . . أنت ذاهب الآن . . »

— نعم . . وأريد أن أعود نهائيًّا إلى بيتى . .

وسكت لحظة ، ثم قال : « وكما قلت لك ، هذه السيدة تريد أن تأتى إليك لتتأكدى من أنها معنا . . »

فقالت حليمة فى غضب : « لا نريدها هنا . . »

فقالت الست : « لماذا ياحليمة ؟ . . لماذا تقفل الباب ؟ .. قد تكون صادقة . . »

— لن تكون صادقة أبداً . .

وبعد لحظة نظرت مصر إليه وقالت فى صوت يتحدى : « كلهم لا يريدون أن يروها هنا . . وأنا لا أستطيع أن أرغمهم على قبولها . . هذا البيت بيت الجميع . . ولكنى مستعدة للذهاب إليها . . »

فصرخت حليمة : « ماذا تقولين ياست ؟ . . »

— وستذهبين أنت معى . . أريد أن أراها عن قرب ، وأرى بيتها . .

— لن أذهب معك . .

ـ ستذهبين . .

ـ وماذا نقول لها ؟ . .

ـ لا شيء . . أريد أن أراها لأفهم أشياء كثيرة . .

ـ إذن نسأل عم عبد الرحيم . .

ـ هناك مسائل أقررها أنا بنفسى . .

ـ ولكن بعض الرجال قد يغضبون . .

ـ كلهم يثقون بى ويعرفون أننى دائماً أتصرف كما ينبغى . .

ـ أمرك . . ولكنى لن أضع يدى فى يدها . .

ـ ليس لك الحق فى أن تقولى ذلك . .

ـ معذرة . . قلته لأننى أخاف عليك منها . .

ـ لا تخافى علىّ منها . .

ـ بل أخاف عليك منها ومنه . .

فقال إسماعيل : « حليمة .. بأى حق تتدخلين بينى وبين زوجتى ؟ »

فتدخلت الطاهرة قائلة : « لا تخافى علىّ من أحد . . مادام أهلى حولى فأنا لا أخشى أحداً . . الله معى . . وقلوبكم دائماً معى . . »

فقال إسماعيل : « إذن متى تريدين الذهاب ؟ »

ـ سأقول لك بعد أيام . .

ـ هل أفهم من ذلك أنك صفحت عنى ؟ . .

ـ أراها أولا . .

– أمرك . .

ومضى فى خطوات متثاقلة . عندما صار فى الطريق ابتسم لنفسه . ولكن الابتسامة لم تلبث أن ماتت على شفتيه ، وأحس برهبة شديدة . ماذا فعلت بنفسك أيها الغبى ؟ . أتيت لتخدعها فخدعتك ! . . إن عزيزة لن تستطيع الثبات أمام الطاهرة . . . سيبدو كل شىء واضحاً فى عينيها . . لا يستطيع أحد خداع مصر . . هذه نهايتك ولا شك . . لا بد أن تحاول إقناع عزيزة بأن ترفض . . هذا هو السبيل الوحيد لنجاتك . . إن عزيزة امرأة ملتوية وشيطانة ، ولكنها لا تقوى على مصر . .

ثم وقف لحظة وأشعل سيجارة ، وواصل السير مطأطئ الرأس ، وهو يشعر بأن ثقل الدنيا كلها حط على كتفيه . .

* * *

– يالها من امرأة قوية! تريدين أن تأكليها؟.. هاهى ذى ستأكلك . . أنا شخصياً لا أجرؤ على النظر فى عينيها . . لقد رأيتها مرة واحدة ، وعند ما نظرت إلى أحسست بأنى غرقت فى عينيها . .

– أنت دائماً تغرق فى عيون النساء . .

– هذه ليست امرأة . . ليست واحدة من النساء . .

– إذن ماذا تكون ؟ . . شيطانة ؟ . .

– ياليت ! . . الشيطانات لا يخفننى .

أنت رجل ضعيف . . طول عمرك رجل ضعيف . .

– كل هذه الأرض ملكتها ، وكل هذا المال جمعته ، وتقولين إننى ضعيف ؟ . .



ــ نعم . . أنت جمعت هذا كله بوسائل أنت تعرفها . . وكلها وسائل ضعف . .

ــ مغرورة . . أنت مغرورة . . وغرورك سيقتلك . . إننى أحذرك منها . . إذا وقفت أمامها فستموتين واقفة . .

ــ إذا مت فلن أموت وحدى . .

ــ لقد حذرتك . . لا تقابليها . . هذا الصياد الذى تجرين معه صعلوك لا يساوى شيئاً . .

ــ الرجال الذين يساوون شيئاً يتعبوننى . . ولهذا أستريح مع أولئك الذين لا يساوون شيئاً . . عندما أملّهم أعرف كيف أتخلص منهم . .

وأحس أن الإشارة إليه ، فنظر إليها طويلا ثم ردد : « مغرورة .. سيقتلك الغرور ! »

* * *

قال عبد الرحيم : « أنا موافق على ذهابك . . ولكن متى ؟ . . »

ــ بعد أسبوع . .

ــ ولماذا هذه السرعة ؟ . .

ــ السرعة أساسية هنا .. العدو يثبت أقدامه فى الأرض مع الأيام .. إنى أحس أن المعركة لا بد أن تبدأ .. هذه الضفة الأخرى لا بد أن نستعيدها . . وقد آن أوان ذلك . . أنا ذاهبة ، وعندما أضع قدمى هناك تبدأ المعركة . .

ــ إذن ليستعد الرجال . .

ـ نعم . . وعندما أعود من هناك يبدءون العبور . .

ـ الرجال ينتظرون إشارة الهجوم . .

ـ هل يعرفون جميعاً معنى هذه المعركة ؟ . .

ـ إنهم يعرفون أنهم إما أن يستردوا الأرض أو يموتوا . .

ـ هل يعرفون أن العدو مستعد ؟ . .

ـ يعرفون كل شيء ، ولهذا فهم يريدون دخول المعركة . . طال شوقهم إلى أرضهم . .

ـ هل يناسبكم ذهابي بعد أسبوع . . أقصد فى مثل هذا اليوم ؟

ـ اذهبي اليوم إذا شئت . . نحن مستعدون من زمن طويل . .

ـ على بركة الله . . لتكن ساعة الصفر سراً . .

ـ هل فى ذلك شك ؟ . .

ـ وهل تذهبين معه وحدك ؟ . .

ـ تخاف عليّ ؟ . .

ـ لا . . لكن الحذر واجب . .

ـ لا تخف . . سآخذ ريحان . . إنه مشتاق لآدم ، وآدم مشتاق إليـــه . .

ـ أخشى أن يرفض إسماعيل . . إن ريحان لا يطيق رؤيته . .

ـ سآخذه معى فى القارب على أى حال . . لا يهمنى ما يقول إسماعيل . .

* * *

أواخر سبتمبر . .

أقبل الخريف مبكراً هذا العام . تلبدت السماء بالغيوم ، وهطلت أمطار كثيرة فى يومين متتاليين . . وهبت عواصف قضت على البقية القليلة من العمران فى رأس البر ، فحزم أواخر المصيفين أمتعتهم وقوضوا العشش الباقية ، وخلا المكان الذى كان يفيض بالحركة . أصبح قاعاً صفصفاً ، وأخذت مياه البحر تغير عليه . . كل يوم تأكل منه جزءاً . . وأخذت مياه النيل الحمراء ترتد إلى النهر . .

وتوقفت عزيزة عن الخروج فى لنشها مع إسماعيل ، وخيم السكون على القصر وما حوله . وأقبلت أسراب السمان من وراء البحر فى موجات متتابعة ، وتساقطت فى الشباك الطويلة التى مدها الصيادون بطول الساحل . .

وعمر الساحل بالصيادين الذين أخذوا يجمعون السمان من الشباك . . كانوا يتسابقون فى ذلك ، لأن السمانة المسكينة إذا اصطدمت بخيوط الشباك وقعت على الأرض وتسارعت دقات قلبها وماتت فى دقائق . . لابد من ذبح السمان الواقع على الأرض قبل أن تفارقه الروح . . أما المسكينات اللائى يعلقن بالشباك فيضطربن فيها حتى يمسكهن الصيادون بالأيدى . .

كان الشيخ إبراهيم ينظر إلى السمان فى الشباك وعلى الأرض ويقول : «كلنا سمان يا أولاد» ولكل منا خريفه وشبكته وموعده . . يا أولاد ! لو تدرون هوان هذه الحياة لما ضننتم بها على دين أو وطن . . » ثم يبكى ويتلو قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم

وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) . .

هذا الموسم الدامى فرحة للصيادين : يأكلون ويطعمون أولادهم ويبيعون وتعمر جيوبهم . . وآلاف الطيور تتعذب وتموت بعد رحلة طويلة هى فى الحقيقة سباق نحو الموت . .

وقال صابر لنفسه وهو يتأمل بعض مشاهد المأساة من مئذنة الجامع :

ـ سبحانك يارب ! مخلوقات تموت ، وأخرى تعيش . . مُلك أنت خلقته وأنت تدبره . . سبحانك يابارئ الكون بلا عون .. تخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى . . !

* * *

بعد الصيف يأتى الخريف ، ومن الصحو تأتى السحب والغيوم . . وإذا غضبت السماء بكت ، فرويت الأرض وضحكت . .

بالأمس ماتت طيور ، وبعد قليل تخضر الأرض ويطلع الحب ، وتأتى طيور أخرى فتلتقطه . . وتواصل الحياة قصتها . .

وعلى ماء المطر يحيا السمك . . كلما أمطرت السماء على الماء الملح انتعشت الأسماك فيه ، كأنها هى الأخرى تنتظر الماء الحلو لتشرب . . الماء الحلو ضرورى لتلقيح الأسماك . . بعد قليل – فى أكتوبر – يمتلئ النهر بأسماك جميلة ، ملايين منها فيها خير كثير للناس . . حياة تأتى من حياة . . وحياة تأتى من موت . . مُلك لا يعرف أسراره إلا خالقه . .

(مرج البحرين يلتقيان) . .

تأمل الكون ثم أغمض عينيك يمتلئ قلبك بنور الله . .

* * *

وقف ينتظر على شاطئ النهر بعد طلوع الشمس بقليل .

كان يعد قاربه ويهيئ شراعه ، ثم توقف قليلا وسأل نفسه للمرة المائة : « ولكن الحصان . . لماذا تريد أن تأتى بالحصان ؟ . . إننى لا أحبه وهو لا يحبنى . . لا أصدق أبداً ما تقوله من أن هذا الحصان مشتاق إلى الرعى بجوار جامع الشيخ إبراهيم . . كل هذا تدبير عبد الرحيم . . هذا الرجل يقف فى طريقى ولا سبيل أمامى إلا القضاء عليه . . »

ثم جلس وأشعل سيجارة ، وخطرت بباله عزيزة بهيئتها الجميلة وقوامها الفارع وملامحها التى تتحدث عن سلطان يلذ الخضوع له : سلطان الجمال وسلطان المال وفتنة الأصل العريق والبيت الكبير . . « ترى هل تصل أيها الصعلوك إلى ابنة السلطان ؟ . . آخ لماذا هى ابنة السلطان ، ولماذا أنا ابن الشيطان ؟ . . ما أطول المسافة بينى وبينك ! ولماذا تجعلينها أطول وأشق بهذا الشرط المستحيل ؟ . . كيف أستطيع أن أزيلها من الطريق بينى وبينك ؟ . . وماذا يحدث لى إذا زالت من الطريق ثم لم أجدك أنت ؟ . . لن أستطيع ذلك . . لا يستطيع ذلك أحد . . »

وانحنى رأسه . . وازداد انحناء . . وغاص فى الهموم . .

وأفاق بغتة على صهيل ريحان من بعيد . .

وأحس برعدة تهز جسده ، وهو يرى الطاهرة مقبلة ومن خلفها عبد الرحيم ممسكاً بعنان ريحان . .

حاول أن يبتسم تحية لهم ، ولكن الابتسامة ماتت على شفتيه . .

ـ لا . . لن أستطيع . . لا يستطيع ذلك أحد !!

وتبادلوا تحية فاترة . .

وخطت مصر إلى القارب معتمدة على ذراع عبد الرحيم . .

وخلفها ، وبدون تردد ، نزل ريحان فى القارب ووقف خلف سيدته . .

وقال عبد الرحيم : « هل أنت واثقة من أنك لن تحتاجى إلىّ ؟ . . »

ـ إنى محتاجة إليك دائماً . . ولكن هذه المهمة أريد أن أقوم بها وحدى . .

ـ إنها تكرهك . . وقد تكون قد دبرت لك شيئاً . .

ـ أنا لا أخشى من يكرهوننى . .

وقال إسماعيل محتجاً : « ياعبد الرحيم أنا معها وأنا زوجها .. هل نسيت ؟ » .

ـ أنا لا أنسى . . ولكنك أنت أحياناً تنسى . .

وسكت إسماعيل . .

وانطلق القارب فى سكون . .

كانت السماء ملبدة بالغيوم ، ثم أخذ الرذاذ يتساقط ، ولم يلبث المطر أن هطل مدراراً . .

ومدّت مصر يديها فملأتهما من ماء المطر ، ثم تركته ينساب من بين أصابعها . .

وأحست بأنفاس ريحان من خلفها ، فمدت يدها وأمسكت بلجامه وأسندت رأسها إلى ذراعه . . وأرسلت بصرها نحو زوجها . .

رأته شارد العينين ذاهلا عما حوله وهو يحرك المجدافين بذراعيه القويتين . .

وبعد لحظات قالت : « إسماعيل . . لماذا تكون دائماً بعيداً عنا ؟ .. »

وأفاق إلى نفسه وقال : « لا يمكن أن أكون بعيداً عنك ولا عن آدم .. »

ــ بل أنت بعيد جداً . . أنت تعرف أين أنت . .

ــ لماذا تقولين ذلك ؟ . .

ــ لأنه صحيح . .

ــ أنت لا تريدينى يامصر . . لم تعودى تحبينى . .

ــ إننى أحب من يحبوننى . .

ــ لقد تغيرت علىّ من زمن طويل . .

ــ إننى لا أتغير ، ولكن الناس من حولى يتغيرون . . أنت لست إسماعيل الذى تزوجته منذ اثنتى عشرة سنة . . يومها لم تكن تشرب الخمر وتقضى لياليك فى الحانة . . يومها أيضاً لم يخطر ببالى أن تجرى وراء امرأة كهذه . .

ــ إننى لا أجرى وراءها . .

ــ لماذا تكذب ؟ . . نحن هنا وحدنا . . بين الماء والسماء . .

ــ كان لا بد أن أجرى وراء رزقى . .

ـ هذا رزق أسود لا أريده ولا آدم يريده . .

وساد الصمت ، وتزايد هطول المطر ، وفتحت مصر عينيها فى دهشة وقالت : « خذ بالك . . أنت متجه بنا نحو الدوامات . . »

فأفاق لنفسه وقال : « كدت أضل الطريق .. شغلتنى عن نفسى .. »

وغيّر اتجاهه وأخذ يجذف بنشاط ليعوض الوقت الذى ضاع . .

وبعد قليل اقترب القارب من الشاطئ ، وتوقف إسماعيل عن التجذيف ونظر إلى زوجته وقال : « أريد أن أعود إليك . . »

ـ تستطيع ذلك إذا أردت . .

ـ وهل تغفرين لى كل ما فعلت ؟ . .

ـ غفرته لك فعلا . .

وانحدرت دموعه على وجهه ومضى يقول : « أصيلة والله .. أصيلة وبنت أصيل . . »

كان صابر ينتظر على الضفة الأخرى ومعه الشيخ سعد إمام الجامع . .

ونزلت إلى البر . . وخطا الحصان وراءها . . وهش لصابر الذى تناول لجامه بيده وسار به خلف مصر فى صمت . .

وقال إسماعيل : « الآن أذهب لترتيب المقابلة . . »

فقالت : « سأكون بانتظارك عند الشيخ سعد .. »

ومضى مسرعاً . .

وعندما ابتعد قال صابر :

— لاتخافى شيئاً . . لقد أعددنا كل شىء . .

— اطمئنوا . . أنا واثقة من كل شىء . . خذوا ريحان لآدم . . ستكون معى أنت ياصابر . .

* * *

كانت بانتظاره فى نافذة قصرها . .

عندما رأته آتياً مطأطئ الرأس قالت لزوجها السابق وشريكها اليوم : « لقد عاد بوجه آخر . . »

— انتظرى حتى تسمعى ما يقول . .

— هذا الكلب ضعيف . . إننى أعرف أنه ضعيف . . وهو لن يستطيع . .

— سيعمل ما نريد ، أراد أم لم يرد . .

— إذا ضعف أو تردد ضاع كل شىء . .

— إذا ضعف أو تردد ستكون هذه نهايته . .

— إنها نهايته على أى حال . . اذهب أنت الآن . . لا أريدك هنا .. لا أريد أحداً منكم هنا عندما تأتى هى . .

وخرج ، وأشعلت سيجارة ، ومرت بيدها على شعرها . وعندما انفتح الباب ودخل منه إسماعيل ابتسمت .. ثم قالت : « أين هى ؟ . . »

— إنها هناك عند شيخ الجامع تنتظر إذنك . .

— إذن اذهب وائت بها . .

— حالا . .

ثم جلس واستأذنها فى أن يأخذ سيجارة .. وظل صامتاً .. قالت: « ليس هذا وقت الضعف . . إذا ضعفنا خسرنا كل شىء . .»

ـ أنا لم أضعف . .

ـ ولكن وجهك متغير . . ماذا بك ؟ . .

ـ لا شىء . . أنا كما تعرفين . .

فاقتربت منه وجلست إلى جواره وأحاطته بذراعها وقالت : « إذا نفذنا خطتنا فسيكون هذا كله لك ولى . . لن يشاركنا فيه أحد . .»

فرفع رأسه وأدار بصره فى الغرفة الجميلة وردد: « نعم . . سيكون لنا .. لا يهمنى إلا أنت . . أنت فقط . . لا أصدق أنك ستكونين لى . . »

ـ أنا من الآن لك . . لابد أن نسير معاً منذ الآن . . خطوة خطوة . . كنت أبحث عن رجل . . وقد وجدته . . »

ونظر إليها . . أحس بالفتنة تسرى فى جسده . . وابتسمت . . وضمها إلى صدره . . وضمته إليها فى حرارة . .

ومرت لحظة صمت ، قطعتها بقولها : « إننى مشوقة للحديث معها . . »

ـ وأظنها أيضاً مشوقة لرؤيتك . .

ـ بعد أن تخرج من هنا ، وفى طريق العودة ، لا بد أن يتم كل شىء.. إذا ترددت لحظة فلن يكون لأحد منا مكان لا على هذه الضفة ولا على الضفة الأخرى . .

ـ اطمئنى . . لن أتردد . .

* * *

ظلت تتطلع من النافذة فى انتظار غريمتها . .

أحرقت سجائر كثيرة . . من حين لحين كانت تنادى رئيس رجالها وتسأله عما إذا كان كل شىء قد تم ، فيؤكد لها أن رجاله مستعدون لإشارة الهجوم .. قالت : «هل أنت واثق من أنهم لا يعلمون شيئاً ؟ . . »

ــ أنا واثق من أنهم ليست لديهم أية فكرة عما سيحدث لهم . . كانوا يحسبون أننى غافل عن أن صابر جاسوس علينا . . عرفنا كيف نخدعه هو والشيخ سعد . . أنفقنا فى ذلك مالا . . غدا نستعيده منهم ونطردهم من هذه الناحية . .

ــ إنهم لا يستحقون غير ذلك . .

وبعد لحظة قال : «أما كان الأحسن أن نقضى عليها هنا اليوم ؟ . .»

ــ ليس هذا من صالحنا . . سأجعله هو يقضى عليها بنفسه . . بعد ذلك يقع الشقاق بينهم وينتهى أمرهم إلى الأبد . . بعد ذلك نعبر إلى الضفة الأخرى أيضاً . .

وبعد لحظة قالت : « ولطفى .. لطفى بك . . أين هو ؟ . . »

ــ خرج بالسيارة ليأتى برجال آخرين . .

ــ رجال آخرين ؟ . .

ــ هو قال ذلك . .

ــ نحن لسنا فى حاجة إلى رجاله . .

ــ لا تخافى . . لن يصل منهم أحد إلى هنا .. لن نقوم نحن بالعمل

كله ليتمتعوا هم بالثمرة . .

— افتح عينيك جيداً . .

* * *

أقبلت فى خطوات ثابتة رافعة الرأس منسرحة القامة . . كان منظرها جميلاً فى ثوب الفلاحة الأسود الأنيق الذى كانت ترتديه ، والطرحة السوداء تسترسل مع الهواء وراء ظهرها فيبدو شعرها الكستنائى المتموج . إلى جانبها كان يسير إسماعيل مطأطئ الرأس يجر ساقيه جراً . أحس كأنها تعدو وكأنه هو يلهث وراءها . . .

ونظرت إلى القصر من بعيد وهى تقترب ، ثم قالت : « من أين يأتون بهذا المال كله ؟ . . »

— ناس أغنياء ، أباً عن جد . .

— هذا المال الكثير لا يورث . .إنه يُسرق . .

— وماذا نعمل ؟ . . هم اللصوص وهم العساكر . .

— العساكر نحن . . نحن أصحاب هذه الأرض . . هذه كلها أراضينا ، وهذا القصر من مالنا . .

— ستقولين لها ذلك ؟ . .

— إذا جاءت مناسبة . .

— لا لزوم . . ربما كان الأفضل أن نصالحهم . .

— كيف نصالحهم وهم غاصبون لأرضنا ؟ . .

— نصالحهم لكى يتركوا أرضنا . .

— إذا صالحناهم الآن أصبحت الأرض لهم نهائياً . .

— إذن لماذا أتيت لزيارتها ؟ . .

— أريد أن تشعر أننى لا أخافها . . أتيت وحدى بدون أحد من رجالى ، وأنا واثقة من أن رجالها يحيطون بالقصر . .

— إذن نعود . .

— عد وحدك إذا شئت . . أما أنا فلن أرجع عما عزمت عليه . .

وعندما كانا على أولى عتبات القصر انفتح الباب وظهرت عزيزة ماهر فى كل أبهتها . .

ابتسمت ونزلت السلم مسرعة . . وعانقتها وهى تقول مرحبة : « أهلا . . أهلا . . ما كنت مصدقة أنك تأتين . . »

فردت مصر لها التحية ، وقالت وهى تدخل القاعة الفسيحة : « لم أر هذا القصر قبل الآن . . متى بنيتموه ؟ . . »

— خلال السنوات الأربع الماضية . . كنت أريد أن أعيش فيه مع زوجى الثانى .. ولكن زواجنا لم يوفق . . فانفصلنا وذهب هو ليعيش فى مكان آخر . .

— ولكنه معك دائماً . .

— هو ابن عمى كما تعرفين . . وهو شريكى فى أعمال كثيرة . .

ودخلتا حجرة جميلة كل مافيها أنيق رشيق . . وجلست ودعت ضيفتها للجلوس ، وتركت إسماعيل واقفاً ، فجلس من نفسه . وأتت أكواب الليمون فشربوا ، ثم نظرت إلى إسماعيل وقالت : « أريد أن أتحدث معها على انفراد . . »

ونهض وخرج ، وأقفلت الباب واستدارت ، فإذا مصر قد وقفت ومضت تنظر إليها بعينيها الواسعتين . ثم قالت: «حدثونى كثيراً عن جمالك . . ولكن ما أرى يفوق كل ماسمعت . . »

ـ ياحبيبتى العفو . . أين أنا منك ؟ . . دعينى أتأملك . . فيم تفكرين ؟ . .

ـ ما كنت أتصور أن سوء حظى يكون له كل هذا الجمال . .

ـ ماذا تعنين ؟ . .

ـ كيف يكون لك هذا الوجه وتكونين بهذه القسوة ؟ . .

ـ فسّرى لى كلامك يا عزيزتى . . كاميني كلام امرأة لامرأة . . ماذا تريدين ؟ . .

ـ أنا لا أريد شيئاً . . أنت رغبت فى رؤيتى ، وعرضت أن تأتى إلى بيتى ، ولكنى خفت عليك من رجال بلدتنا، ففضلت أن آتى أنا إليك . .

ـ ولكنك قلت شيئاً عن سوء حظك . . هذا لا أفهمه . .

ـ ألم تطلبى إلىّ الآن فقط أن أفتح لك صدرى ، وأن أكلمك كلام امرأة لامرأة ؟ . . هل كلامى هذا يصعب فهمه على امرأة مثلك ؟ . .

ـ آه . . تعنين زوجك ؟ . . ولكنى لست مسئولة عن ذلك . .

ـ أولا أحب أن تعرفى أننى لا أشكو . . مصر عمرَها كله تتألم ولا تشكو ، ثم إننى لم آت إلى هنا لكى أتكلم فى موضوع زوجى . .

هذا موضوع لا أتكلم فيه إلا معه هو . .

ـ لا أعتقد أنك تستطيعين الكلام معه فيه . .

ـ هو زوجي على أي حال ، وما يجرى بيني وبينه يخصنا نحن الاثنين . .

وساد صمت لحظة ، وعادت عزيزة تقول : « لا أدرى لماذا أشعر نحوك بحب كبير . . كنت أكرهك من كل قلبي قبل أن أراك وأسمع صوتك . . أما الآن فصدقيني أنني أخشى على نفسي . . »

ـ ولماذا تخشين ؟ . . إذا كنت صادقة فيما تقولين فما يمنعك من أن تفتحي لي قلبك وتنضمي إلىّ وإلى رجالي ، أولئك الناس الطيبين الذين تريدين أن تأخذى أرضهم ؟ .

ـ أنا لا أريد أن آخذ أرضهم . . إنها أرضي اشتريتها بمالي . .

ـ هذه ياعزيزتي ليست أرضاً . . إنها بالنسبة لنا وطن ، والوطن لا يشترى بالمال . . دعي هذا الوطن لأصحابه وعودى من حيث أتيت . . إنك امرأة غنية . . والأغنياء يجدون أوطاناً فى كل مكان . .

ـ صدقيني . . إنني لا أطمع فى هذه الأرض ولا أفكر فى أذى واحد من أولئك الرجال الطيبين . . لقد أتيت وشركائي لكي نضع أموالنا فى هذه الأرض وننشئ فيها المشروعات ونحولها إلى جنة . . هم أنفسهم سيكونون أسعد حالا معنا . . ستتسع أرزاقهم وتتفتح أمامهم أبواب الرقي . . عندنا مشروعات لمدرسة ومستشفى . . و . . .

ـ ولماذا لاتنفقون هذه الأموال فى بلدكم الذى جئتم منه ؟ . . ما الذى يجعلكم تنفقون هذه الأموال هنا فى أرض ليست أرضكم وبين ناس

لايحبونكم ؟ . .

ــ ولكن هذه أرضنا أيضاً ياعزيزتى . . قبل مئات السنين كانت هذه كلها أرض المهايرة . .

ــ لم تكن قط أرضكم . . ربما كان بعضكم يعيش هنا منذ زمن طويل ، ولكنهم هاجروا منها وتركوها ليجمعوا المال فى بلاد أخرى . .

ــ وجمعنا المال وعدنا واشترينا هنا أرضاً واسعة .

ــ ولكنا نحن أقمنا فيها مخلصين لها أجيالا بعد أجيال . . من مئات السنين لم تعرف هذه الأرض غيرنا . . نحن أحييناها وأصلحناها وحاربنا فى سبيلها وجعلناها وطناً . . كما قلت لك . . هذا وطننا . .

ــ ولكننا لم نشتر هنا إلا جزءاً قليلا . . والباقى لكم . .

ــ هذا كلام سمعناه كثيراً . .

ــ إنك تسيئين الظن بى . . إننى لست امرأة جشعة ولا طامعة كما تظنين . . لاتنسى أننى امرأة مثلك . . إذا سمحت لى قلت كذلك إننى امرأة مسكينة مثلك . .

ــ ولكننى لست مسكينة . . إننى لم أكن ولن أكون أبداً مسكينة . .

ــ فى رأيى أن كل امرأة يتركها زوجها امرأة مسكينة . .

ــ لماذا تعودين فى إصرار غريب إلى موضوع زوجى هذا ؟ . . إذا كنت تريدينه فخذيه . .

ــ أنا لا أريده . . ولا أريد أى رجل آخر . . هذا موضوع انتهى بالنسبة لى . .

— يخيل إلىّ أنك مسكينة فعلا . . غنية جداً ومسكينة جداً . .

— ربما . . ولكننى لست مسئولة عن ذلك . . هذه الدنيا ظلمتنى . .

— ولهذا أنت قاسية . .

— لا أدرى أقاسية أنا أم غير قاسية . . ولكننى أعرف أننى لا أحب أن يغلبنى أحد . . غلبونى كثيراً وأنا صغيرة . . أهلى ، هؤلاء الأغنياء الذين يحسدهم الناس ، عذبونى كثيراً أيام طيشى وشبابى . . حرمونى من الرجل الذى أحببته وزوجونى من الرجل الذى أرادوا . .

— ولهذا أنت تريدين أن تنتقمى منى . . ومن أهل بلدى . .

— إننى لا أنتقم . . إننى أريد أن أنشئ هنا شيئاً ضخماً ، وأن يعمل فى خدمتى ألوف الرجال ويفيض المال فى يدى . . المال خير ما يعوض المرأة عن آلامها . .

— لن يكون لك شىء مما تريدين ياعزيزتى . . لن تنشئى شيئاً ، ولن يعمل أحد فى خدمتك ، ولن تجدى المال الذى يعوض آلامك . .

— بأى سلطة تقولين هذا الكلام ؟ . .

— بسلطة صاحب الحق . .

— كم أنت عنيدة ! . كنت أسمع أنك امرأة من طراز فريد . . والآن أرى بالفعل أنك لا تشبهين أى امرأة أعرفها . .

— لأننى لست مجرد امرأة . .

— إذن ماذا تكونين ؟ . .

— إننى أم . . أم لألوف الرجال . . لأجيال من الرجال . . أم

لهذه الأرض كلها . . أم لهذا النيل الذى يجرى على مرمى البصر . .

فظلت عزيزة واجمة لحظة ثم قالت : « لا أفهم . . لا أفهم شيئاً مما تقولين . . »

ــ بل تفهمين كل حرف فيه . .

ــ صدقينى أنى لا أفهم . .

ــ إذن حاولى أن تفهمى . .

ــ ولماذا لا تحاولين أنت ؟ . .

ــ إنى أفهمك جيداً ، أكثر مما تظنين . .

فملك الغيظ عزيزة وصرخت : « حذار أن تسخرى منى! . . »

فنظرت مصر إليها طويلا ، ثم جلست ووضعت ساقاً على ساق ، وقالت فى هدوء يشبه البرود : « حذار أن تصرخى فى وجهى هكذا مرة أخرى! . . »

ــ لا أدرى لماذا فعلت ذلك . .

ــ أنا أعرف . . أنت خائفة منى الآن . .

ــ أنا لا أخشاك ولا أخشى أحداً . . وأنت لم تأتى إلى هنا لتهينينى فى بيتى . .

وتعالى صوتها جداً ، فانفتح الباب وبرز منه رجل من خدم عزيزة وقال : « ماذا حدث ؟ . . »

فقالت عزيزة وقد أدارت ظهرها : « لم يحدث شىء . . افتحوا الباب لهذه السيدة لكى تخرج . . »

ـ زوجها ينتظرها هنا . .

ـ لتذهب هى وزوجها . . لا أريد أن أرى أحداً منهما . .

وهبت مصر واقفة ، ودخل إسماعيل فنظر إليها ثم إلى عزيزة ، ووقف صامتاً دهشاً مفتوح الفم . .

وبخطوات متزنة ثابتة ، عالية الرأس ، سارت مصر . .

ونظر إسماعيل إلى عزيزة وخطا نحوها خطوة ، فقالت وهى تنظر من النافذة دون أن تلتفت إليه : « أنت تعرف ماعليك أن تفعله . . »

ـ ولكن ماذا ؟ . .

ـ أنت تعرف ماينبغى أن تفعله . .

ـ اسمحى لى فقط . .

ـ اذهب من هنا الآن . . لن أغفر لك ماصنعت بى هذه المرأة . . ولن تغفر لك هى مافعلته بها . . لا مكان لك هناك قطعاً . .

ـ وهنا ؟ . .

ـ نفذ ما اتفقنا عليه وعد إلى بيتك هنا . .

ـ بيتى ؟ . .

ـ هنا بيتك وامرأتك . . ماذا تنتظر ؟ . .

ومضت خارجة من باب آخر . . ووقف هو لحظات حائراً فى أمره . . ثم سار خارجاً مطأطئ الرأس صامتاً . .

* * *

صلى الشيخ سعد العصر ، ثم ذهب إلى داره فوجد الست الطاهرة

تنتظر فى ردهتها ومعها ابنها آدم، وفى المرعى خارج الدار كان ريحان يتزود بآخر قضمات من الشعير الزكى الذى زرعه سعد قبل مجىء ريحان بأسابيع . .

ـ خيراً إن شاء الله . . ؟

ـ حدث ماتوقعت . . لن يفصل بيننا وبينهم إلا الحرب . .

ـ هى الحرب إذن ؟ . .

ـ وهذا أوانها . .

ـ وهكذا نقول جميعاً . . كنا ننتظر إشارتك . .

ـ أنا عائدة الآن . . .

ـ لا تخافى . . كل شىء مستعد . .وهل تأخذين آدم معك ؟ . .

ـ آدم سيظل هنا مع الرجال . .

ـ ولكن ، هنا ستدور المعركة . .

ـ ولهذا سيبقى هنا . .

ـ ومتى تسيرين بإذن الله ؟ . .

ـ الآن . . نادوا إسماعيل . .

ـ وريحان ؟ . .

ـ سيعود معنا . .

ـ أفضل أن يرافقكم بعضنا فى أثناء العبور . . إننى غير مطمئن . .

ـ لا تخف علىّ . . هناك كلام كثير أريد أن أقوله له ، منى إليه ..

ـ أمرك ، ليحرسك الله . .

ــ اذهب يا آدم الآن . . من سيأخذه ؟

ــ هنا مسعد وإبراهيم ومصطفى . .

وقبّلت ابنها وضمته إلى صدرها فى حنان شديد ، ثم أخذه الرجال ومضوا . .

وخرج معها الشيخ سعد ، وتبعهما صابر وقد أخذ بعنان ريحان واتجهوا نحو النهر . .

كانت الشمس تنحدر نحو المغيب ، وقد تلبدت السماء بالغيوم وظهرت نذر المطر من جديد . . وقال الشيخ سعد : « يبدو أن الطلبة ينتظرونك . . »

ــ أين ؟ . .

ــ هنا وراء هاتين الشجرتين . .

ونظرت ، فإذا صلاح الدين وزكى شنوده ومصطفى بدر ، ونفر آخر من الطلاب من أهل دمياط والشطوط وأصدقائهم ، ممن قرروا الاشتراك فى المعركة إلى جوار إخوانهم من الصيادين وغيرهم من أهل البلد ، واقفين فى انتظارها وقد أخذوا أهبة الحرب وتقلد كل منهم سلاحه ، فابتسم وجهها وقلبها عندما رأتهم . وتقدموا فسلموا عليها وانتحوا بها جانباً . وقال صلاح الدين : « لو تأخرت قليلا لكنا هاجمنا القصر . . »

ــ خشيتم علىّ منها ؟ . .

ــ العدو عدو . . وهو لا يؤمَن أبداً . .

ــ بورك فيكم . . والآن ، ماذا ستعملون ؟

ـ لكل منا موقعه ورجاله الذين يقودهم . . بمجرد أن يصل قاربك إلى الضفة الأخرى سيبدأ الهجوم . .

ـ وأين عبد الرحيم ؟ . .

ـ فى مكانه . . سيقود القتال . .

ـ إنها معركة إلى النهاية . . أنتم تعلمون ذلك . .

ـ لن نضع السلاح حتّى نقضى على العدو تماماً . .

ـ إنه عدو مجرم وعنيد . . وستكون معركتنا معه ضارية . .

ـ لهذا نحن هنا . .

ـ إذن فاذهبوا على بركة الله . .

وقال زكى شنوده : « أنا غير مطمئن لعودتك معه فى القارب . . »

ـ معى ريحان . .

ـ وأخاف أيضاً على ريحان . .

ـ نحن معاً لن يغلبنا هذا الرجل . .

ـ لا يدرى أحد ماذا يمكن أن يعمل العدو . .

ـ هناك أشياء كثيرة أريد أن أعرفها منه إذا انفردت به فى القارب . . عبد الرحيم يعرف ذلك . .

ـ كما تريدين . .

ـ اذهبوا الآن يا أولادى . . لا تخافوا علىّ . .

وحياها الشباب فى رجولة وحزم ومضوا ، وجعلت تنظر إليهم حتى غابوا وسط النخل والشجر ، ثم سارت فى طريقها . وقال الشيخ سعد:

« قلبى منقبض . . »

فقالت : « لا داعى للانقباض . . من معه أولئك الشباب والرجال لا يمكن أن ينهزم . . »

وساروا صامتين . ثم قال الشيخ : « بمجرد أن تصلى هناك نبدأ . . من الشاطئين سيرقبون قاربك . . كونى على حذر . . هذا الرجل خائن . . »

— ولهذا لا أخافه . . الخائن لا يخيف إلا خائناً مثله . .

* * *

نزل ريحان فى القارب الشراعى وتبعته مصر ، فى حين وقف إسماعيل فى قاعه وقال : « هاهو ذا المطر يعود . . الطبيعة غاضبة . . »

— هى لا تغضب من غير سبب . .

— اللهم اجعله خيراً . . لن أنشر الشراع منذ الآن . . سأستعمل المجداف أولا ثم أرى هل أستطيع نشر الشراع . . .

وأخذ يجذف فى همة شديدة . وكان يدخن سيجارة ، ثم كأنه ضاق بها فألقاها فى الماء . . وأمسك بالدفة فى يده . . ودفعت الريح القارب دفعاً شديداً . .

وعلى صفحة الماء انتشر ذهب الأصيل ، فى حين أخذ المطر يهطل ، ثم يصير وابلا . . وهبت ريح عاتية جعلت القارب يميل ميلا شديداً . . ثم سكنت الريح فوقف إسماعيل وأخذ ينشر الشراع ، فقالت : « لا داعى للشراع . . المجاذيف أفضل فى هذا الجو . . »

ـ أظن أن العاصفة ستهدأ . .

ـ إذن انتظر حتى تهدأ فعلا . .

ـ لا تخافى . . أنا مراكبي منذ ولدت . .

ـ ألا تكفى المجاذيف ؟

ـ لا تكفى . . القارب كبير . .

ـ ولكننا نتجه نحو الجنوب . .

ـ ستتحول الريح بإذن الله . .

ـ أقول لك اطو الشراع . . ستعصف الريح بالقارب . .

وهبت الريح من جديد . . ومال الشراع ميلا شديداً حتى كاد أن يمس الماء ، وأخذ ريحان يضرب بحوافره ويصهل . . وقالت مصر : « الآن تطوى الشراع . . نحن نتجه نحو الدوامات . . »

فنظر إليها وقال فى صوت يتحدى : « فى كل مكان تستطيعين إصدار الأوامر . . إلا هنا . . هذه مهنتى وأنا أعرفها . . دعينى أتصرف . . »

ـ قلت لك اطو الشراع . . القارب سيغرق هكذا . . الدوامات قريبة منا . .

ـ كفى أوامر . . لقد سئمت نفسى هذا العيش معك . . جاء دورى لكى أصدر لك أوامرى . . أقول لك اجلسى . . فى كل مكان تعتزين علىّ برجالك . . بماذا تعتزين الآن ؟ . .

ـ بنفسى ، ماذا تريد ؟ . .

– أريد ما أريد . . هذا ليس شأنك . . حسبتِ أن حصانك هذا يخيفني ؟ . . سترينه الآن يغوص فى الماء أمامك . .

– إسماعيل . . أقول لك اطو الشراع . .

– وإذا لم أفعل ، فماذا تعملين ؟ . . رأسى تحت قدميك العمر كله . الآن جاءت اللحظة التى تجثين فيها على ركبتيك وتطلبين العفو . . حرمتنى من ابنى ومن بيتى وأزريت بى بين الناس . .من أنت ؟ . . ألست زوجتى ؟ . . ألست امرأة كغيرك من النساء ؟ . . لماذا تتفرعنين علىّ ؟. الآن تعرفين من أنا . .

واشتد هبوب العاصفة . . ومال القارب ميلا شديداً حتى مس الشراع الماء فعلا . . واجتهد إسماعيل فى توجيه الدفة نحو الدوامات . . وصهل الحصان صهيلا شديداً وانتابه رعب وقلق بالغان ، وتعلقت مصر برقبته وأخذت تمسح بيدها عليها وتقول : «ريحان .. لا تخف .. اهدأ ياريحان» .. هذا الشيطان لن ينال منا شيئاً . . أنا معك . . ريحان . . ريحان .. »

وبينما كانت تناديه لم يكن قد بقى بين القارب والدوامات إلا أمتار قليلة . . واتجه القارب نحوها فى عنف . . وخلع إسماعيل جلبابه ، وعندما تأكد أن طرف القارب دخل الدوامات قفز إلى الماء . . وزاد فزع ريحان فقفز فى الماء ، وبعده مصر . .

وبعد لحظات كان القارب وسط الدوامات . . ودار دوراناً سريعاً ثم اختفى . .

وتعالى الموج . . ولم يعد المراقبون من الشاطئين يرون شيئاً . .ومضى

ريحان يكافح فى اتجاهه نحو الشاطئ الذى أبحر القارب منه . .
وغاصت مصر فى الماء لأول وهلة ، ولكنها كتمت أنفاسها . .
وعندما طفت على سطح الماء نظرت فلم تر إلا السماء والموج . .
وأخذت نفساً طويلا وغاصت مرة أخرى . .
وجاهدت حتى طفت ، ونظرت فرأت ريحان يكافح ويشق طريقه إلى البر . .

وهتفت : « ريحان ! . . ريحان ! . . »

وتوقف الحصان فى سبحه . . ثم التفت خلفه فرأى مصر تغوص تحت الماء بعد أن هتفت مرة ثالثة : « ريحان ! . . »

واستدار الحيوان النبيل . . وأخذ يكافح متجهاً نحوها . .
وطفت مرة ثالثة . . . فرأت ريحان إلى جوارها . . .
وجاهدت حتى اقتربت منه . .
ولمست رقبته ، وحاولت أن تمسك بمعرفته فلم تستطع . .
واقترب منها الحصان وطأطأ لها رأسه حتى أمسكت بلجامه . . ثم رفع رأسه فارتفعت معه . . وشهقت شهيقاً عميقاً . . وتشبثت بيدها الأخرى برباط سرجه وارتفع رأسها فوق الماء . . وأخذت تتنفس وتسعل . . واستدار ريحان وأخذ طريقه إلى البر والأمواج حوله متعالية . .

* * *

وهاج الرجال على الشاطئ وقالوا : « غرقت. . . مصر غرقت . . »

وقال عبد الرحيم فى حزم : « مصر لن تغرق أبداً . . من ألوف السنين

وهى تكافح هذا الموج . . »

فصاح رجل بصوت يخنقه البكاء : « أين هى إذن ياعبد الرحيم ؟ . . ثلاثة بالله العظيم غرقت . . »

— ومالك تبكى هكذا كالأرملة ؟ . . ألم أقل لكم إن الرجال لا يبكون ؟ . . الجندى لا يبكى أبداً . .

— حتى إذا كانت قد غرقت ؟ . .

— قلت لك إنها لم تغرق . . ولا يمكن أن تغرق ومن حولها رجال . .

— وماذا نعمل ياعبد الرحيم ؟ . .

— وهل هذا سؤال يارجل ؟ . . إلى القوارب . . هذه شارة الهجوم . . أشعلوا النار يارجال حتى يرى إخوانكم على الضفة الأخرى الإشارة ويبدءوا الهجوم . .

وقال بعض الرجال : « ولكن الموج عال جداً . . »

فقال عبد الرحيم وهو يخطو إلى قاربه : « من كان منكم يخاف على حياته فلا حاجة لنا به .. هذه حرب وليست لعباً . . لا نريد جباناً معنا .. إلىّ يارجال . . من يحب مصر فليأت معى . . »

وتسارع الرجال إلى القوارب . . بعضهم مسلح بالبنادق وبعضهم بالمراوات . .

وبعد قليل كانت عشرات القوارب تعبر إلى الضفة الأخرى وسط عاصفة عاتية : رياح تصفر ، وموج متدافع ، ومطر غزير منهمر . .

وتعالت على الشاطئ نار ليراها الرجال من الشاطئ الآخر . .

وقال رجل لعبد الرحيم : « بقى بعض الرجال على الشاطئ ثم تسللوا هاربين . . »

ــ هؤلاء ماتوا . . هربوا من الموت إلى الموت . . لا مكان لهم بيننا بعد الآن . . عندما نعود سنطردهم . . الأرض لا يستحقها إلا الذين يحاربون فى سبيلها . .

* * *

وغالبت القوارب الأمواج . .

انقلب بعضها فى الماء من هول العاصفة ، ولكن معظم رجالها استطاعوا الصعود فى مراكب أخرى . . وغاب بعضهم الآخر فى الأعماق . .

وعندما تراءى الشاطئ هلل الرجال ، وبرز رجال آخرون من الناحية الأخرى . . كانوا رجال عزيزة وشركائها . .

وبدأ الترامى بالرصاص . . وتساقط رجال كثيرون . .

واقتربت المراكب من الشاطئ . . وتحت وابل الرصاص قفز رجال على الشاطئ والتحموا مع العدو . .

وتقاطر رجال العدو ، وتواثب الرجال إلى البر ، واتسع نطاق المعركة ..

وأقبل رجال كثيرون آخرون كانوا ينتظرون على الضفة الأخرى ، ودخلوا القتال . . وسقط قتلى وجرحى . .

وهجم بقية رجال مصر الذين كانوا يتربصون فى هذا الشاطئ ..

وتردد صوت إطلاق الرصاص ، وتوالى الضرب ، وحمى الوطيس .

وصاح عبد الرحيم : « يارجال مصر .. ليس لكم إلا مصر . . موتوا

فى سبيلها وإلا فلا مكان لكم على الأرض . . »

وشيئاً فشيئاً أخذ رجال مصر يتغلبون . .

وخرقت جماعة منهم الصفوف واتجهوا نحو قصر عزيزة وبيدهم مشاعل..

وروعت عزيزة وصرخت : « لطفى !. لطفى ! . أوقفوهم .. اقتلوهم قبل أن يصلوا . . سيحرقون القصر . . سنموت فى النار . . »

واقتحم الرجال البيت وأخذوا يشعلون النار فيه وهم يصيحون : « هذه أرضنا ولا مكان لكم فيها ولا بيت . . »

ومن بعيد رأى رجال العدو بيت سيدتهم يحترق فانتابهم الروع وأخذوا يتقهقرون . .

ومن أعلى المئذنة نظر الشيخ سعد إلى المعركة الدائرة فهتف : « الحمد لله وحده ..صدق وعده .. وأعز جنده .. وهزم الأحزاب وحده.. هذه مصر يارب .. كنانتك وحصن الإيمان . وليس لها نصير غيرك .. »

* * *

إلى الشاطئ وصلت مصر متعلقة بلجام ريحان . .

وسار الحصان خطوات وقد بدا عليه الإعياء ، ولكنه تحامل على نفسه وسار وهى متعلقة به . . ثم وقف . . وتسارعت أنفاسه . . ثم برك على الأرض .

وارتمت مصر عليه ، وألقت برأسها على رقبته . . وأخذت تسترد أنفاسها . . مكثت على هذه الحال بعض الوقت وهى ترتعد ، فقد كانت ملابسها مثقلة بالماء . . كانت خائرة القوى ، تنظر ولا تقوى على الحركة ، وقد امتدت ذراعها على رقبة ريحان . .

ثم رأت ناراً تتعالى من بعيد . .

ودق قلبها سريعاً . . ورفعت رأسها وسرى الدم فى وجهها واتسعت عيناها وصاحت : « هذا بيت العدو يحترق . . لقد صدق رجالى وعدهم . . »

وفى جهد شديد أنهضت الحصان وامتطت صهوته . . ولبثت رافعة الرأس تنظر إلى النار المتعالية من القصر . .

وعلى ضوء النار رآها بعض الرجال من بعيد فهتفوا : « مصر . . هذه مصر . . هذه هى . . سالمة بإذن الله . . »

وتسارع نحوها بعضهم . .

وبصر بها عبد الرحيم فقال للرجال : « قلت لكم إن مصر لن تغرق أبداً ومن حولها رجال . . »

وسار الحصان نحو ميدان المعركة . .

وتقدم عبد الرحيم وناول مصر العلم . . وسارت والمعركة على أشدها . . وهتفت : « آدم . . ابنى آدم . . أين هو ؟ . . »

وأجاب رجل من بعيد : « هنا . . معنا فى المعركة . . »

ــ هاتوه هنا . . ليكن إلى جانبي على الحصان . .

ورفعوه إليها . . فأركبته على الحصان أمامها . . وسارت والرجال من حولها ، فى حين أخذ رجال العدو يتهاربون . .

وقال رجل : « سيدتى . . لا تقتربى من القصر . . هناك جهنم . .

ــ بل هذه هى الجنة . . هذه هى أرض مصر استعدناها . . تلك هى الجنة . .

ــ إذن حذار من النار . .

ـ لا حذر من النار . . الطريق إلى الجنة يسير عبر النار . .

واستمرت المعركة طول الليل . .

وعندما انبلج الفجر كانت ألسنة اللهب ماتزال عالية ، وكان معظم القصر قد تحول إلى رماد . .

وقالت مصر وهى تتأمل آخر رجال الأعداء يهربون : « طوبى لكم يارجال . . صبرتم وقاتلتم وانتصرتم . . هذه قصتى معكم دائماً . . لقد تلاشى أعداؤكم . . »

وقال رجل : « لقد مات منا كثيرون . . »

ـ هؤلاء هم الشهداء . . هؤلاء هم المنتصرون . . الشهداء يفتحون أبواب الجنة . .

وقال رجل وهو يضمد جرح زميل له : « ما أجملها على حصانها ومعها ابنها . . »

ـ لقد فتحنا لها أبواب الجنة من جديد .. إنها أم الدنيا .. هى أم آدم وكل ابن آدم . .

ـ آدم يعود إلى الجنة . .

ـ من خلال النار.. الجنة وراء ألسنة اللهب .. تحت ظلال السيوف ! ..

تمت

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٢/٥٨٠٤

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٢

